مذكرات

جرجي زيدان

نشره

الدكتور صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد

مُذكَراتْ

جُرجي زيدَانْ

نشرها

الدكتور صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد

الطبعة الاولى
جميع الحقوق محفوظة
١٩٦٨

مقدّمة

هـذه المذكرات

– ١ –

انصرفتُ منذ ثلاث سنوات إلى دراسة جرجي زيدان . فأعدتُ قراءة مؤلفاته كلّها حتى رواياته التاريخية ، ثم تتبّعتُ مقالاته في الهلال منذ أنشاه إلى أن تركه ، واطلعت على ما كتب عنه منذ وفاته إلى اليوم . ثم وضع الأخوان الجليلان الأستاذان اميل وشكري زيدان أوراق المرحوم ومراسلاته ورسائله ومذكراته وتقييداته وأشعاره تحت تصرّفي ، فقضيت معها شهور ، أنقّر في كل دفتر ، وأفلّي كل رسالة ، وأبحث عن كل اسم . فكان لي من عملي هذا كله صورة واضحة المعالم لجرجي زيدان . وصار عندي يقين أن هذا الرجل الكبير ، في علمه وقلبه ، مجهول عند أبناء العرب ، لا يعرفه حق المعرفة إلا القليلون ، وأنه لم يُدرَس حتى يومنا هذا دراسة عميقة منظمة تتناول جوانب شخصيّته كلّها .

كان عملي أقرب إلى الاكتشاف منه إلى البحث الذي يُجمع . فقد كان لي من أوراقه كنوز لا يدرك شأنها إلا الذين ألِفوا البحثَ في المخطوطات القديمة ، واستخراج الروائع منها . وهكذا كنتُ ، كل يوم ، أمام كشف جديد ، ينير لي شخصية جرجي زيدان شيئاً بعد شي .

– ٢ –

رأيت أن دراسة منظمة عن هذا العالم يجب أن تتم على النحو التالي :

١ً – فيجب البدء بنشر مذكراته .

٢ً – ثم رسائله إلى أفراد أسرته وأصدقائه .

٣ً – ثم رسائل الناس إليه ، من الأصدقاء والعلماء والقرّاء .

٤ً – ثم تقييداته ومقتطفاته من الكتب التي كان يقرأها . وهي إما مختارات وإما مصادر ومراجع للبحث .

٥ً – ثم يتوّج ذلك كله بالدراسة الشاملة العامة عنه : مؤرخاً وروائياً وصحافياً .

وبدأت بتنفيذ هذه الخطة . وها هي مذكراته بين يدي القراء .

— ٣ —

تتناول هذه المذكرات فترة قصيرة من حياته ، تبدأ بولادته سنة ١٨٦١ وتقف عند سفره إلى مصر سنة ١٨٨١ . وهي فترة هامة جداً ، فيها بدأت شخصيته تنمو وتستقيم وتكتسب ميزاتها الأساسية . وفيها اهتدى إلى الطريق الذي يجب أن يتبعه .

تحدث جرجي زيدان في مذكراته عن أسرته ونشأته والمشاق التي لقيها في سيره نحو العلم ، والصراع الذي ابتلي به بين أن يسلك طريق العلم أو طريق الفتوة .

ووصف طبقات أهل بيروت في القرن الماضي أحسن وصف ، وكثيراً ما كنتُ أردّد ، وأنا أقرأ وصفه العامة والرعاع البيروتيين : ما أشبه الليلة بالبارحه ! . وكان منهجياً في وصف خطواته التي سلكها في الحياة ، من الكُتّاب إلى المدرسة إلى الكلية ، وفي وصف أصدقائه وعشرائه وزبائن مطعمه ، ثم معلميه وأساتذته . وكان صادقاً ، دقيقاً ، جريئاً وصريحاً فيما كتب كله . لا تحسّ بتكلّف أو تصنّع فيما يقول ، بل لا تحسّ بأيّ عقدة نفسيّة عنده تدفعه إلى تزوير ماضيه ، أو الادعاء بما ليس عنده أو فيه .

واستطاع أن يتعلّم وينبُل ويسمو ، من غير مثال من أهله أو أقاربه

اتخذه قدوة . فما كان أبوه عالماً ، ولا عُرِفَ من أسرته مَنْ له شأن وذكر . لكنه وجد في قلب أمّه الكبير ما يدفعُه إلى التقدّم ، ويشجّعه على التعلّم ، ويضمن له الانتقال من الحسن إلى الأحسن .

فمن كان يصدّق أن جرجي زيدان : العامل البسيط ، والطبّاخ الصغير ، في مطعم شعبي في ساحة البرج ، وصانع الأحذية في سوق الطويلة ، يصبح – بجده وصبره ورغبته في عرفان كل شيء – أكبر عالم في شرقنا العربي ، في عصره . وأن يكتب الآلاف من الصفحات ، ويدوّن العشرات من المؤلفات ، وأن يبعث التاريخ الإسلامي بشكل حديث ، علمي روائي ، فيتثقّف ، بما كتب ، المسلمون والمسيحيّون ، وأن يسهم في نهضة مصر العلمية ، فيكون موجّهاً لها وأستاذاً كبيراً فيها .

وهو بمذكراته هذه يعتبر أول من أدخل هذا النوع الأدبي – أعني المذكرات الذاتية – في أدبنا الحديث .

كان جرجي زيدان عصامياً ، بل نموذجاً رائعاً للعصامية . وإني أنصح كل شاب أن يقرأ مذكراته هذه. إنها مذكرات لا يغريك فيها حسن البيان أو تنميق اللفظ أو رشاقة الأسلوب ، بل هي مذكرات تثير الهمم ، وتدفع إلى العلم والعمل ، وتحبّب الجدّ والسعي ، والشرف والطموح ، وتعلم النجاح في الحياة .

— ٤ —

نُشر قسم كبير من هذه المذكرات في مجلة الهلال (١٩٥٤) ، نشراً صحافياً . فقد حذفت أقسام منها ، وهُذّبت عبارات كثيرة فيها . ولا يمكن أن يتّخذ مانشر أساساً علميا لأي بحث .

ثم نشر المرحوم الأستاذ الدكتور نبيه فارس قطعة منها في مجلة الأبحاث (١٩٦٧) تتعلّق بأخبار الكلية ، وإضراب التلاميذ فيها عن حضور الدروس . وبذل ، رحمه الله ، ما استطاع من جهد في التعليق عليها .

لكنني لاحظتُ أنه بدّل في بعض عبارات النص ، وألفاظه ، وأضاف إليه ما ليس فيه . وقد أفدت من بعض تعليقاته .

وقد أهملت تماماً ما نُشر في الهلال ، واتخذت مخطوطة المذكرات التي كتبها جرجي زيدان بخطه أساساً لعملي .

تقع هذه المخطوطة في ٧٦ صفحة ، في دفتر عتيق . وقد زاد فيها صفحات أخرى فيها إضافات على النص ، كما أدخل أوراقاً طيّارة فيها استدراكات أخرى .

ويظهر من خط هذه الصفحات أن جرجي زيدان كتبها بسرعة ، أو أنه كان يكتب بسرعة . فكان يغفل أحياناً قواعد الإعراب ، أو يمحو كثيراً من الألفاظ ، أو يعدل عن معنى أراده فيمحو ما كتب ويثبت معنى آخر . والخط واضح على الأغلب ، وهو من نوع التعليق . وعلى الجملة فإن هذه المخطوطة هي مسوّدة المؤلف ، ولم يُتح له إعادة النظر فيها .

ولم نشأ أن نصحّح أو نبدّل في النص . فأثبتناه كما تركه المؤلف . لأنه في حالته هذه يؤرّخ مرحلة من مراحل تكوينه الثقافي .

واتبعت النص بفهارس مختلفة تيسّر الانتفاع به .

ولا بد أن أنهي هذه المقدمة بشكر الصديقين الأستاذين اميل وشكري زيدان . فقد قدّما لي جميع الأوراق الخاصة التي تركها والدهما ، ومنها مخطوطة هذه المذكرات ، للإفادة منها في دراستي عنه . وقد كان لهذه الأوراق قيمة كبرى . فلولاها لما كان عملي أصيلاً ، ولما استطعت تقديم صورة جديدة عن ذلك العالم الكبير .

بيروت
١٩٦٨

صلاح الدين المنجد

جرجي زيدان

حدثني والدي ونحن غلام عن أصل عائلتنا فقال ان اباه كان يسمى
زيدان مطر (او زيدان بولس مطر) وكان خوليًا عند الست حبوس والدة الامير مصطفى
ارسلان كانت تحكم عين عنوب وما يليها في اوائل القرن الماضي واذا غضب كان خولينا
عندها اي وكيلا على ارزاقها واستغلالها فلما حمل ابراهيم باشا على سوريا وفتح
عكا واراد الاستيلاء على الجبل كانت الست حبوس من جملة الذين يريدونه وخافت
سطوته فحدثتها نفسها بالفرار من وجهه فعزمت على ذلك
وطلبت الى جدي زيدان ان يرافقها في هذا الفرار فأبى لأنه رأى بعين البصيرة
ان الدولة المصرية غالبة لا محالة ولانه رجل ذو عائلة لا يطاوعه قلبه على فراقهم ولا يأمن
عليهم وهو هارب فالحت عليه بمرافقتها فاعتذر بالتقدم في السن وقد وجدت
عليه وسارت فدخل ابراهيم باشا الجبل
سنة ١٨٣٢م وظلت الست حبوس مختفية الى ان ضعف امر ابراهيم
فرجعت الست الى بلدها عين عنوب وقد حقدت
على زيدان وصادرته بأملاكه وامواله ثم اضطهدته
شأنه فلم يستطع ... قبل اوان وترك احراجًا واثنين
وصبيين احدهما اكبرهما والدي ولم يكن سنه قد تجاوز الثالثة عشرة
الا قليلا ولما تعذر على والدته البقاء في عين عنوب نزلت بأولادها الى
بيروت وليس لهم ... ونزلوا بيروت ...
خبرة لا يرتزقون ... وكانوا لا علم لهم ولا صنعة ولا حرفة او
حرفة معروفة او صنعة او تجارة ولم يكن والدي يعرف القراءة ولا الكتابة
ولا كانت مدارس ... الارساليات ...

الصفحة الاولى من المذكرات

مُذكَراتُ
جُرجي زيدان

حدثني والدي وأنا غلام عن أصل عائلتنا فقال : إن أبانا كان يسمّى زيدان مطر (أو زيدان يوسف مطر)، وكان خوليّاً عند الست حبوس والدة الأمير مصطفى أرسلان ، كانت تحكم عين عنوب وما يليها في أوائل القرن الماضي ، وأن جدي كان خولياً عندها ، أي وكيلاً على أرزاقها وأشغالها . فلما حمل ابراهيم باشا على سوريا وفتح عكا وأراد الاستيلاءعلى الجبل كانت الست حبوس في جملة الذين لا يريدونه ، وخافت سطوته ، فحدثتها نفسها بالفرار من وجهه ، فعزمتْ على ذلك وطلبتْ إلى جدي زيدان أن يرافقها في هذا الفرار ، فأبى لأنه رأى بعين البصيرة أن الدولة المصرية غالبة لا محالة ، وله أطفالٌ وعائلة لا يُطاوعه قلبُه على فراقهم ولا على حملهم وهو هارب . فألّحتْ عليه بمرافقته فاعتذر بما تقدم ، فتركتْه وقد وجدت عليه وسافرتْ . فدخل ابراهيم باشا الجبل بمساعدة الأمير بشير سنة ١٨٣٢ وظلت الست حبوس مختفية إلى أن ضَعُفَ أمرُ ابراهيم .

فرجعَتْ الستّ المشارُ إليها الى بلدها عين عنوب وقد حقدت على زيدان ، وصادرتْ أملاكه وأمواله ، أو تعمدت الحطّ من شانه .

فشقّ ذلك عليه، وأثّر في صحته فمات قبل أوانه، وترك امرأة وابنتين وصبيّين أحدهما وأكبرهما والدي، ولم يكن سنّه يتجاوز العاشرة من العمر، وهو كبير العائلة. ولم تقدر والدته على البقاء في عين عنّوب فنزلتْ بأولادها إلى بيروت، وليس لهم معين إلاّ أبي. وبيروت يومئذٍ صغيرة لا مرتزق بها غير الاتجار واصطناع ضروريات الحياة كالأطعمة والألبسة ونحوها، أو خدمة الحكومة في الكتابة أو الجندية.

ولم يكن والدي يعرف القراءة ولا الكتابة. وكانت مدارسُ الارساليات اللاتينيّة لا تزالُ قليلة، ولم يوفق لمن يأخذه إليها، حتى لو أتيح له ذلك لا يستطيع لأنه مضطرٌ لإعالة والدته وإخوته، ولا يعرف صناعة، وإنما كان رأسماله الرغبة في العمل. فاهتدتْ والدتهُ إلى طريقة تستطيع هي أن تعينه بها، فأخذت تصطنعُ خبزاً تخبزه، وهو يحمل الخبزَ على فَرْشٍ ويدورُ لبيعه على الناس في الأسواق، الرغيفُ بخمس باراتٍ أو عشر، فيربح بذلك ما يسد جوع العائلة.

قال: وبقيتُ على ذلك مدة حتى كبرتُ قليلاً، فعلمتُ أن في المدينة فرناً أو غير فرن، تصطنع خبزاً للجند. فدخلتُ في خدمتها، وتعلّمتُ العجنَ بمقادير كبيرة، أي وضعوا في المعجن مئة أقة أو مئتين دفعة واحدة، وكنت شاباً في عنفوان الشباب، فكنتُ أحْسِنُ العجنَ على كِبَر العجنة، وقد آخذ أجراً حسناً وأفاخر سواي من العجانين.

وكانت أختاه قد كبرتا وتزوجتا وهما أكبر منه ، فبقي هو وأخوه ميخائيل ، والعمدةُ في العمل عليه ، لأن أخاه كان ميّالاً للهو . ثم ارتقى من صناعة الفرانة أو الخبازة إلى الأطعمة . وكانت بيروت قد تحولت التجارة إليها وكثر فيها الغرباء الوافدين[1] ،فرأى أن يفتح مطعماً ففتحه فربح منه وتحسنت حالته . ففكّر في الزواج وهو يومئذٍ في السابعة والعشرين من عمره ، فخطب أمّي وهي من بيت الحائك وأصلهم من ...[2] ، وأمي أخت عدة أخوات لا أخ لها ، خطبها سنة ١٨٦٠ .

فحدث في تلك السنة الاضطرابات المشهورة ، وخاف أهلُ بيروت من ثورة عمومية كما حصل في لبنان والشام . فأخذوا يتأهبون للفرار ، فقالت ستّي لوالدي : نحن في حال قلق ، والمدينةُ في خطر ، فإمّا تتزوج الفتاة وتهتم بها ، أو تحلّ الخطبة وناخذها معنا . ففضّل الزواج ، فتزوجها في تلك السنة .

وانقضت تلك الحوادث ولم تصب بيروت بضرر يذكر ، وعادت الناس الى أعمالهم ، ووالدي في دكانه (لوكندة) قرب البرج الكشّاف ، ومكاسبُه تتزايد ، وولد له الأولاد ، وأولهم أنا ولدتُ في أواخر سنة ١٨٦١ . ولم أكن أعرف يوم ولادتي بالتدقيق لأن أبي لم يكن يكتب ولا أمي ، وإنما كانوا يقولون لي إني ولدت في التشارين ، أي في الخريف، وربما عينوا عيداً مشهوراً لا أذكره . فبعد أن كبرتُ وأحببتُ أن أعرف

(١) كذا في الأصل .
(٢) بياض في الأصل .

يوم ولادتي كنتُ في مصر وعزمتُ أني لما أزور بيروت فاول شيء أبحث عنه تاريخ تنصيري في سجل الكنيسة ، لاعتقادي أن الكنيسة تؤرّخ عمادات رعاياها ، وإذا عرفتُ العماد رُبّما رأيتُ معه يوم الولادة . فلما رحتُ الى بيروت في السنة التي تزوجت بها سنة ١٨٩١ سالت قسّيسنا القديم واسمه الخوري موسى ـ كان رجلاً ساذجاً وعاش عمراً طويلاً ورعاياه يحبونه لسلامة نيته . فلما أتى للسلام عليَّ سالتُه عن الدفتر الذي فيه التسجيل المشار إليها[١] فقال : « ليس عندنا قيد ولا سجلات يا ابني ، لأننا لم نكن إنعمدت »[٢] . فشقّ عليَّ ذلك وأظهرت استغرابي . وكان والدي حاضراً فسألني عن غرضي فقلت: «إني أسال الأب عن سجل العماد، فقال أنه ليس عندهم » قال . ولماذا . قلت : لاستخرج تاريخ ولادتي.

فضحك وقال : اسألني فانبئك أن يوم ولادتك لا يضيّع أحداً . إنك ولدت في اليوم الذي مات فيه ملك الانكليز (هو يعني زوج ملكة الانكليز البرنس البرت) » .

فقلت : وكيف عرفت ذلك ؟

قال : عرفته لأني أذكر جيداً في الليلة التي وُلدتَ فيها ، وكنا ساهرين ، فسمعنا طَلْقَ مدافع من البحر من دوارع انكليزية كانت راسية هناك ، فسألنا عن السبب فقيل لنا : إن ملك الانكليز مات » .

(١) كذا في الأصل .
(٢) كذا في الأصل.والكلمة غير واضحة،يمكن أن تقرأ:لم تكن اتعمدت،أو لم نكن انعمد.

فعلمتُ إذ ذاك إني ولدت في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٦١ وهو اليوم الذي توفي فيه البرنس البرت زوج ملكة الانكليز .

أما أصل عائلتنا فليس له خبر مدوّن ، لأن والدي برح بيت والده مع سائر العائلة أشبه بالهاربين ، وهو طفل لا يعرف شيئاً ، فلا ندري إذا كان لها خبرٌ مدوّن في عين عنوب . ورُبّي هو في بيروت أميّاً فقيراً ، وشُغل بإعالة العائلة فلم يهتم بالبحث عن أصل أرومتنا . فلما شَبَبْتُ وأردتُ البحث عن ذلك كاتبتُ بعض أهل عين عنوب عما يعلمونه عن عائلة مطر هناك وأصلها . فجاءني جواب على لسان شيخ من أهلها أنه يذكر أن بضعة من آل مطر أتوا عين عنوب غرباء أشدّاء لا يُعلم أصلهم ، وأن أحدهم زيدان تقدّم في خدمة الست حبوس . وسمعتُ من رجل آخر على يد أخي يوسف أنّ عائلة والدي توالى منها من عين عنوب بضعة أعقاب آخرهم والدي . وأما أوّلُ مَنْ نزل منهم هناك فيزعم بعضُ آل مطر أن فرع عين عنوب أو الشوف على الإجمال أحد ثلاثة فروع أصلها من جهات طرابلس أو أهدن ، وكانوا ثلاثة أخوة فرّوا من ظلم حاكم هناك منذ قرنين تقريباً ، فأتى أحدهم الشوف ، وذهب الآخرُ إلى حاصبيّا ، وآخر الى المتن . وكل ما يقال من هذا القبيل ظنون لا يعوّل عليها .

ويغلبُ على ظني أن أصل عائلتنا مثل أصول أكثر عائلات الطائفة الأرثوذكسية في الشوف ، والغالبُ فيها أن تكون من حوران . على

أنّه ما كان يلاقيه عرب تلك البلاد من الضنك أو الفقر فينزلوا الجبل على عادة نزول أهل البادية المدن والقرى لتفريتها [1] . وكثيراً ما كان عرب حوران المسيحيون يلجأون إلى لبنان فراراً من اضطهاد مسلميها ، وأشهر تلك الاضطهادات والفتن حدثت في حوران منذ أربعة قرون ، وتوالى أمثالها بعدها . والغالب في اعتقادي أن أكثر أهل جنوبي لبنان الروم من عرب حوران ولعلهم الغساسنة . وربما كان بين عرب حوران رهط أو بطن يسمّى بنو مطر ، وبين آل مطر الحصبانيّة جماعة من بني مطر يُقال لهم بنو مطر الحوارنة فربما كان جدنا الأعلى منهم . وكل ذلك من قبيل الحدس والتخمين ، ولم يثبت عندي إلاّ ما حدثني والدي عن أبيه كما تقدم .

وكان والدي يحدثني أنه بعد أن نزل بيروت وصار شاباً جاءه جابي الخراج في الجبال يطالبونه بالمستحق على أرض له في عين عنْوب ، ولم يكن يكترث بذلك ولا يدفع الخراج . فلما تكرر رفضه سقط حقه من الأرض ، فشغل ذلك ذهني . فاغتنمتُ ذهابي للاصطياف في لبنان سنة ١٨٩٦ وحدّثتُ بعض رجال الحكومة من أهل عين عنْوب عما يعلم من هذا القبيل ، فوعدني بمراجعة سجلات الحكومة ، ثم عاد وأخبرني أنه لا يزال في القرية المشار إليها أرض تعرض باسم « شير مطر » ، والشير شبه سفح ، وأنه الآن ملك الحكومة . فعلمتُ أنه البقعة التي أمسك والدي عن دفع خراجها فعادت الى الحكومة .

(١) كذا في الأصل ، غير واضحة .

ولدتُ في بيروت في بيت لـ « الياس الشويري » كان في محل مدرسة الآباء اليسوعيين الآن ، مؤلفاً من طبَقَتَيْن : الطبقة السفلى مؤلفة من ثلاث غرف كبيرة ودار ، ثم نقلنا الى بيت آخر ، وآخر ، فبلغ عدد البيوت التي تنقلنا فيها في أثناء عشرين سنة نحو ١٦ بيتاً ، وهي عن سبيل التوالي ١) بيت الشويي ٢) الفرنيني ٣) عرمان بحارة اليهود ٤) جانب كرخانة الدحداح ٥) بيت الشوابي (ثانية) ٦) عيسى سرور ٧) الخوري موسى ٨) كركر ٩) القسّيس ١٠) الشويري[1] (ثالثة) ١١) بيت ثابت ١٢) الحاج حسين ١٣) بيت حبيقة ١٤) بيت رعْد ١٥) بيت التيان ١٦) بيت الحايك ـ والفائدة من تعداد هذه الأسماء أننا لم نكن أهل ملك ، والمستأجر بيتُه على ظهره ، وأكثر هذه البيوت في شرقي المدينة وشماليها . وأكثرها مؤلف من غرفتين غرفة للنوم وأخرى لاستقبال الناس ، ودار للجلوس أو الطعام ، وبعضها من ثلاث غرف . ولم تكن الحاجة ماسة لكثرة الغرف لأنهم لم يكونوا يستخدمون الأسِرّة في الغرف،فالغرفة الواحدة يمكن استقبال الناس فيها نهاراً والرقاد فيها ليلاً ،لأنهم كانوا يطوون الفُرُش عند النهوض من الرقاد، ويرصونها بعضها فوق بعض على خزانة أرضية يستخدمونها لوضع الآنية ، فيصفّون الفُرُش فوقها ويلقون أمامها ستراً ويعبّرون عن هذا المكان باليوك ، فلا تظهر الفرش للناس ، ويكون في الغرفة غالباً مقعدٌ يحسنون هندامه وينظفونه جيداً . وأهل بيروت مشهورون بالنظافة ، وخصوصاً أبناء الطائفة الأرثوذكسية ، وفيهم المغالون بالنظافة الى حد

(١) كذا وردت هنا ، ووردت قبل الشويي والشوابي .

الوسواس ، وأشهر هـؤلاء بيت طراد ، وبيت فيّـاض ، ومنهم من يُصَـوْبِنّ حبال الغسيل ، ويصوبن رخام البيت والأبواب كل يوم ، وإذا رأوا زائراً أمسك شيئاً من الآنية صوْبنوها ، وفيهم من يصوبن الحطب عند حمله الى البيت ، ولم يبق إلاّ أن يصوبنوا الصابون !.

فسكن العائـلة المؤلفـة من رجـل وامرأة وبضعة أولاد في غرفتين فقط يدل على توسّط الحال ، وليس على الفقر . وقد تسكن هذه العائلة في غرفة واحدة ، ولا تظهر عليها المسكنة والذلّ ، لأنك لا تدخل تلك الغرفة إلاّ رأيتها نظيفة ، وقـد أُرخيت الستائرُ البيضاء من البفتـة المغسول غسلاً نظيفاً على الفرش (اليوك) ، وترى عـلى المقعد غطاءً مثله قد نُظفّ وسُوِّي ، وقد مُسحت الحصر مَسْحاً نظيفاً ، وأُصلح كل شيء في تلك الغرفة إصلاحاً حسناً ، وتستنشق رائحة النظافة من مجملها . ولا أعني رائحة الأطياب أو العطور ، وإنما هي رائحة لا يُعبّـر عنها بغير رائحة النظافة ، يَشمُّها الرجل إذا تنشّق ثوبـاً خارجاً من بين يدي الغسّالة الماهرة ، وربما غلبت فيه رائحة الصابون . فتشتهي إذا دخلت تلك الغرفة ــ ولا تدخلها إلاّ بعـد نزع الحذاء ــ أن تجلس عـلى مقعدها أو على حصيرها ، وأن تشرب القهوة الـتي تقدّمها لـك صاحبة البيت بيدها ، إذ يندر عند هؤلاء اقتنـاء الخدم . فترى صاحبة المنزل في وقت الطبخ والتنظيف والغسيل مشمّـرة أردانها تكنس ، او تشطف ، تغسل وتنشر ، وتطبخ وتعجن ، والصحة والنشاط باديتان في كل حركة من حركاتها . فـإذا فرغتْ من عملها أصلحت من شأنها على أبسط زيّ ،

ولبست ثوباً بسيطاً نظيفاً ، وأخذت تستقبلُ ضيوفها أو زائريها ، وهي تصنع لهم القهوة ، وهي تقدّمها ، وإذا كان لها أبنة تقدر على تقديمها قدمتها عنها .

وهي مع ذلك لا تغفل لحظة عن تربية أولادها ، وترتيبهم من حيث اللبس والطعام وتعلّمهم النظافة ، وتعودّهم النشاط . وكان أغلب النساء في ذلك العهد أميّات ، لا يعرفن القراءة ، ولا تعلّمْنَ في المدارس ، ولكنهن كان لهن من ذكائهنّ وقوة إرادتهنّ أفضلُ وسيلة لتربية أبنائهنّ على النشاط والعمل والمحافظة على الوقت ، ويُبغّضْنَ إليهم الجبن والكسل ، ويحمسْنهم ، ويربّوا[1] فيهم البسالة والإقدام . وكانت والدتي واحدة من أولئك ، وهي قوية البنية ، صحيحة العقل ، دقيقة الإحساس ، كتومة ، قليلة الكلام ، كثيرة العمل ، لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً للقيام بكل ما تقدّم من لوازم البيت ، وخصوصاً لأن والدي لم يكن يعود إلى البيت ولا يرى أولاده إلاّ وهم نيام ، لأن شغله في اللوكندة كان يشغله في الصباح باكراً إلى قرب نصف الليل كل يوم ، لا أَحد[2] عنده ولا عيد . فلم يكن يستطيع مساعدة والدتي في تربية أولادها . ولعل أكثر متوسطي الحال في ذلك العهد كانوا على نحو ذلك . وإن كنتُ أجد والدتي أكثرهنّ نشاطاً وعملاً ، فقد كانت عائلتها مؤلفة من سبعة أو ثمانية أنفس هي وحدها مدبّرتها بكل ما تحتاج إليه العائلة من طعام

(١) كذا في الأصل .
(٢) يريد يوم الأحد .

ولباس ووقاية وتربية ، فقد رأت أمي في وقتها متسّعاً للاتجار وهي في بيتها ، من ذلك أنها رأتْ والدي يبتاع الخبز لأجل مطعمه من الخبّازين، وعلمت طبعاً أنّ هؤلاء يكسبون بهذا العمل . فعرضت عليه أن تخبز له ، وتبيعه بسعر الخبازين . فعلت ذلك عدة سنوات ، واقتصدت منه دنانير قليلة كانت تنفقها في الضرورات . وكانت تشغل فراغ وقتها أحياناً في تطريز العرقيات تسليك الحرير ، أو غير ذلك ، لا تجد في ذلك تعباً ولا عيباً .

نشأتُ في حياتي وأنا أرى والدي يخرج الى دكانه من الفجر ولا يعود إلاّ نحو نصف الليل أو قبيله ، وأرى والدتي لا تهدأ لحظة في الصباح إلى المساء لا تعرف الزيارات ولا الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية ، فإنها لم تكن تذهب للصلاة في الكنيسة إلا نادراً ، وإنما همها تدبير بيتها وتربية أولادها . شَبَبْتُ على ذلك وأَلِفْتُهُ . فغرس في ذهني أنّ الإنسان خُلِقَ ليشتغل،وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير ، بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدْين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء ، لا يهمّهم إلاّ ماذا يأكلون وماذا يشربون ، وإذا فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق أو غيره ، يقتلون به الوقت ، ولا يُقْدمون على العمل إلاّ مكرهين ، يحسبون العمل عيباً أو تعباً ، ولو عوّلوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف ، فالأبناء الذين يربْون بين أولئك الآباء لا غرو إذا شبّوا كسالى ومالوا الى الملاهي والرذائل .

وكان والدي أمياً ، لكنه شعر بالحاجة إلى الكتابة والقراءة لَمّا فتح دكانه ، ومن زبائنه مَنْ يُحاسِب شهرياً أو أسبوعياً . فكثرت عنده الحسابات الجارية . فكان في باديء الرأي يُقيِّد ذلك بيده أرقاماً تعلّمها ، ويترك اسم المدين للقرينة ، ثم وكَّل التقييد إلى مَن استخدمهم في دكانه . فجرّته حاجته إلى الكتابة أن يبدأ بتعليمي القراءة باكراً ، فارسلني الى المدرسة وأنا في الخامسة من عمري عند معلّم اسمه الياس (أو جرجس) ، شقيق قسّيس عائلتنا الخوري موسى . وكان العلم الى ذلك الحين لايزال محصوراً في رجال الكهنة أو من ينتمي إليهم ، ولا يتبادر إلى الأذهان ان المعلّم الياس كان فيلسوفاً ، فإنه لا يكاد يحسن القراءة في الإنجيل. وكانت مدرسته عبارة عن قبو واسع في بناية ليعقوب ثابت بجوار مدارس اليسوعيين الآن ، ثم صار ذلك القبو فرناً بعد ذلك . فكان أشبه بالزريبة منه بالمدرسة ، يجتمع فيه أبناء أهل الحي من سن الرابعة الى العاشرة ، ذكوراً وإناثاً،يجلسون على حصيرٍ أو حُصر بسطها في أرض القبو ويجلس هو في صدر (القاعة) على طَرّاحة ، وبين يديه صندوقٌ صغير (بشتختة) يضع عليه كتابه ودواته وأقلامه ، ويجمع الى يمينه عدة قضبان تختلف طولاً ودقة يستخدم كلاً منها في محله حسب سن الولد وجنسه وبُعْدِه منه أو قربه . وأذكر أني كنتُ أتعلّم عنده القراءة في المزامير ، وهو أول كتب القراءة يومئذ بعد الهجاء ، فكنا نحفظ المزمور من كثرة تكرار قراءته ونحن لا نفهمه . والقاعدة أن نقرأ عليه بصوتٍ عالٍ ، وهو ما يعبّر عنه بالتسميع ، وربما قرأنا

اثنان أو ثلاثة معاً ، والمعلم جالس الأربعاء وراء صندوقه ، ورأسه يكبو على صدره من النوم ، وشخيره يخالط أصواتنا ، وكلما اشتدّ الضجيج استغرق في النوم . ولما تتعب رقبته من التدلي يلقي رأسه على الحائط ويرفع رجليه على الصندوق ، بحيث تواجه أخمصاه وجوهنا ، ونحن لا نبالي به ، فإذا أخذ غفوة ، أو حدث ما يوقظه فتح عينيه وصاح ببرود « اسكتوا يا أولاد » . فإن لم يسكتوا تحركّ وتناول أحد القضبان وضرب أقربَ الأولاد إليه ، وإن لم يكن مذنباً . فيصيح ، ويضحك الباقون منه . فيتناول قضيباً أطول يضرب به سواه ، وقد يهمّ بالنهوض عند مسيس الحاجة ويقبض على المتمرد من الأولاد ويُلقيه على الأرض ، ويستعين بخادمٍ أو غلام كبير على وضع الفلق في رجليه ، أو وضع رجليه في الفلق ، ثم يصفعه على أخمصيْه عشر ضربات أو عشرين ، أو أكثر أو أقل ، على ما يتراءى له . والفَلَقُ أداةٌ للقصاص أصبحنا في حاجة الى وصفها الآن لأنها زالت من المدن المتمدنة ، وهو عبارة عن عصا ثخينة قد شُدّ إليها حبل يتصل طرفاه بطرفيْها ، ويبقى وسطه مرخيّاً ، فيُدْخِلُ قَدَميْ الغلام بين الحبْل والعصا ، ويُديران العصا ، فيلتفُّ ما زاد من الحبل عليها ، وتنحصر القدمان ، فيرفعانها والغلام مستلقٍ على ظهره ، فيُمْسِكُ أحدُ الحضور طرَفَيْ الفَلَق ، ويأخذ المعلم بالضرب على الأخمصين بالقضيب .

لا أذكر أني ذقتُ طعم هذه الآلة في المدرسة ، ليس لفضيلة فيّ ولكنني كنت كثير الخجل شديدَ الخوف من العقاب ، أحبُّ الابتعاد

عن أسباب الشحناء ـ كنت أشعر بهذا الخُلُق فيَّ من طفولتي ـ فكنت أبتعدُ عن ما يُغْضِبُ المعلم، أو يبعثه على انتهاري أو ضربي.

قَضَيْتُ في تلك المدرسة سنتين على ما أظن، حتى قال المعلم لوالدي: إن جرجي قد ختم درسه، وصار يفكُّ الحرف. فسُرَّ والدي سروراً كثيراً، ومعي ختم القراءة أني صرتُ أعرف أقرأ بالمزامير جيداً، وهذا صحيح كنت أقرأه جيداً لكنني لم أكن أفهم ما أقرأه.

ولم يكن ذلك ليُكفي مطمع والدي من تعليمي لأني لم أتعلم الكتابة والحساب بعد، فلا أقدر أقيد أسماً وأضع بجانبه ما يطلبه. فنقلني من تلك المدرسة العامرة الى مدرسة كانت قد فتحت حديثاً في بيروت تعرف بمدرسة الشوام نسبةً الى أهل الشام، لأن الذين قاموا بإنشائها جماعة من أدباء دمشق نزحوا منها الى بيروت على أثر المذابح التي حدثت سنة ١٨٦٠. وفي هذه المدرسة أخذتُ بعض مبادىء الحساب والنحو والخطّ، وابتدأت أفهم، وفتحت عينيَّ. وكان لأساتذتها عنايةٌ كبرى في التعليم، واشتهرتْ في التربية على الخصوص لصرامة قوانينها، ولا قوانين هناك غير إرادة الناظر أو كبير المعلمين وهو يومئذٍ ظاهر خير الله الشويري. وكان شديد اللهجة، عظيم الهيبة، وأصله بنّاء، وفيه ذكاء، فتعلّم وتثقّف على نفسه، وصار معلماً براتب حسن. وكان التلاميذ يهابونه ويخافون صوته. وكان يُعلّم الحساب والنحو، وهو ماهر فيهما على الخصوص. وكان من معلمي النحو هناك أيضاً معلم آخر اسمه الياس

الخوري ، صار قاضياً بالكورة بعد ذلك ، ومعلم من بيت نوفل يُسمى جورج راجحة ، وآخر من بيت عاصي لا أذكر اسمه . وكانت لهذه المدرسة شهرة حسنة لكن مدتها لم تطل كثيراً ، ولا أعلم السبب، ولكنني أذكر أنها أقفلت وأنا في نحو التاسعة من عمري (سنة ١٨٧٠) . وأسِفَ الأهلون لتعطيلها لأن طريقة التعليم كانت حسنة فيها .

خرجت منها وأنا أعرف مبادىء النحو والصرف والخط والحساب وقليلاً جداً من اللغة الفرنساوية .

وأشار أساتذة تلك المدرسة يومئذ على الآباء أن يرسلوا أولادهم الى مدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس . وكان المعلم ظاهر قد تعيّن فيها ناظراً أو معلّماً . فشهرتُهُ ساعدتْ على انتقال أكثر تلامذة مدرسة الشوام الى هناك ، ثم ما لبث أن أنشأ لنفسه مدرسة خصوصيّة انتقلتُ إليها ، وكان المعلم ظاهر شديدَ العناية في تعليم التلامذة ، محافظة على شهرة مدرسته والتماساً لنجاحها ، وكانت تعلم اللغة والحساب والفرنساوية . قضيت في هذه المدرسة نحو سنتين ، وقد أخذت ألتذّ بالعلم وأتفهمه ، ولا هَمَّ لي غير الدرس . وقد خالفت سائر التلامذة من حيث اللعب ، لأني لم أكن ميالاً لِلّهو مطلقاً . وكنت أعدُّ ذلك نقصاً فيَّ فلم أكن أطيّر طيّارة ، ولا ألعب الطابة (الكورَة) ، ولا بالكلّة (البليه) ، إلاّ نادراً . وقد أقف للفرجة ، أو أرافق التلامذة إذا خرجوا لتطيير طيارة ضخمة كان يجتمع إليها أبناء الحيّ فاتبعهم وأنا معجب بشجاعتهم أو مهارتهم في صنع الطيارة أو تطييرها .

ففي أواخر السنتين وأنا في السنة الحادية عشرة من عمري ومعارفي ناقصة احتاج والدي إليّ في لوكندته لأتولى مساعدته موقتاً في تقييد الأسماء وإرضاء الزبائن، ريثما يوفق الى سفرجي غير الذي تركه بالأمس. وذلك أنه كان عنده خادمٌ للمائدة من بيت شباب رُبّيَ عندنا، وكان يُعوِّلُ عليه والدي في التقييد والطبيخ وغيرها. فزعل منه لا أدري لأي سبب. خرج الشاب الى بلده ولم يعد، ولم يلحّ عليه في الرجوع لاعتقاده أن ولده جرجي صار يعرف يقيّد، ويقدر يساعده على الطبيخ وغيره، ولو موقتاً حتى يرجع ذاك رغم أنفه. فقال لي: تعالَ يا جرجي لمساعدتي سبعة أو ثمانية أيام ريثما أجد من يقوم مقامك. فأتيت مكرهاً، لأني كنت ملتذاً بالتعلّم كثيراً. فأطعتهُ وأنا أعلل النفس بالرجوع الى المدرسة. فامتدت تلك الأيام السبعة الى سبعة أو ثمانية أعوام قضيتها في أسواق بيروت بين عامتها، وأنا مضطر لمعاشرة أحطّ الطبقات فيها، لأن محلنا – أي اللوكندة – كانت حوالي ساحة البرج، انتقلت من مكان الى آخر ولم تبعد عن تلك الساحة، وساحة البرج كانت يومئذٍ ملتقى الزعران الرعاع وأهل البطالة، وفيهم السكّير والمُقامر وأهل الدعارة والخصام. وكنت أتجنب عشرة هؤلاء لأني لم أكن أملك من وقتي فراغاً للهو. أما الذين كنت مضطراً الى معاشرتهم من الزبائن الذين يتردّدون على المطعم فاكثرهم غرباء قدموا بيروت لتجارة أو عمل آخر. وإن كان بينهم أحد من أهل المدينة فلا يخلو أن يكون فارّاً من بيت أبيه لنقيصةٍ كان ينوي ارتكابها في تلك الليلة، لأن أهل بيروت لا

يا كلون في اللوكندات إلاّ في أثناء النهار اذا كان أحدهم في مخزنه ،وبيته بعيد عنه ، أمـا في المساء فكلهم ياوون الى منازلهم يتناولون العشاء مـع أولادهم ونسائهم أو آبائهم . وكان أكثر بيعنا الأطعمة ليلاً للعشاء ، فلا ياتي من أهل المدينة إلاّ المتشرّد أو نحوه ، فكان أكثر زبائننا إما سكارى أو متشردين أو غرباء .

ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عاماً وبعض العام خافت والدتي أن يطول مقامي وأضيّع مستقبلي . وكانت تكره المطاعم . وكانت منذ طلبني والدي لمساعدته وهي تلحّ عليه أن لا يُطيل مقامي وهو يعدها . فلما مضت السنة الأولى ألحّت أن يُخْرجني ويعيدني الى المدرسة.فقال ـ: «إنه قد أتم دروسه ولا فائدة من كثرة الدروس إلاّ اذا كنت تريدين أن تجعليه كاتباً أو معلماً ، فضلاً عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجاً متانقاً ، لا ياكل إلاّ بالشوكة والسكّينة ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الافرنجي ، (وكان هذا اللباس قليلاً يومئذ لا يلبسه من السوريين إلاّ كبار الموظفين في القنصلاتات أو نحوها ، وكان الأكل بالشوكة والسكينة لا يزال معدوداً من عادات المتانقين بالتفرنج) . ولم يقل والدي ذلك عن نفور من المدنية ولكنه كان محباً للمحافظة علـى العوائد الشرقية ويكره التصنّع أو التظاهر بمظاهر التفرنج . فاقتنعت والدتي بهذا الجواب ، ولكنها مـا زالت تكره أن أبقى في تلك الصناعة ، فقالت : أدخله في صناعة أخرى غير هذه ، فإني أكره هذه الصناعة ، ورائحة الزفر والاغباس في الدكان ليل نهار ، لا عيد ولا أحد . فأذعن لاعتراضها . وبعد النظر قرّ رأيها

على أن أتعلّم صناعة الأحذية الافرنجية ، وكانت حديثة العهد في بيروت . وحجتهم في اختيارها أن جرجس الشويري وأخاه نخله ابنيْ أخي ... [1] اشتغلا بهذه الصناعة ونجحا، حتى فتحا محلاً لبيع الجلود. وقد ابتاعوا أرضاً وبنوا بيتاً. فاقرّا الرأي على تعلّمي هذه الصناعة. فاقعدوني عند الخواجات شويري، وأنا يومئذٍ في الثانية عشرة من العمر. قضيت سنةً في التعلّم، ثم انتقلت الى محل آخر لأخوين من دمشق من بيت الضحيّك أو الضحاك ، محلّها في سوق بَيْهُم . قضيت عندهما نصف سنة أخرى . وكانت ما هيّتي عند الشويري نصف فرنك في الأسبوع فارتفعت عند الضحاكين الى فرنك ، لأني ما زلت في عداد تلامذة الصناعة ، مع أني كنت قد تعلمت أكثرها . قضيت في صناعة الأحذية نحو سنتين ، ثم خرجت منها مضطراً لأنّ الجلوس على الكرسي للشغل طول النهار لم يوافق صحتي . فبعد أن كنت في اللوكندة سميناً نشيطاً أصبحت بعد سنة في صناعة الأحذية ضعيفاً ، وأصابني ضعف في معدتي حتى خافوا عليّ ، فقرّروا إبطال هذه الصناعة والرجوع الى اللوكندة موقتاً ريثما يفكروا في صناعة أخرى ، وأنا الى ذلك الحين لا أفهم معنى المستقبل والاعتماد على النفس والنظر في طلب العُلى .

قلت : إني أُصِبْت بضعف في صناعة الأحذية وهم ينسبون ذلك الى الجلوس الطويل وقلة الحركة ، ولا أنكر تأثير هذين السببين في الصحة ، ولكن هناك سبباً هاماً هو من الأسباب السرية التي يقع فيها كل غلام أو شاب . وقعت في هذه العادة قبل اشتغالي بالأحذية ، وأنا لا أجد فيها لذة

(١) كلمة غير واضحة في الأصل .

لصغر سني . فلما عاشرتُ سائر العمال من الأولاد زادوني رغبة فيها مع جلوسي الطويل . فاجتمعت كل هذه الأسباب وأضعفتني . غير أني أذكر لاشتغالي في محل الضحيك فضلاً كان له تأثير كبير في مستقبل حياتي لأني فيه فهمت مقدار الضرر الناجم عن هذه العادة ، فهمته بالعَرَض ، فوقع في نفسي موقعاً عظيماً . وذلك أن أحد أبناء الوجهاء في بيروت كان يتردّد الى محل الضحيك وهو صديق للأخوين يمازحهما كثيراً ويباسطهما في مسائل كثيرة ، لا يحاذر أن يسمعه الصناعية الصغار، لأنه كان من أهل الطيْش . فجاء مرةً وهو يشكو من انحلال وضعف . ولما خرج من الدكان قال أحد الأخويْن لأخيه : « مسكين صاحبنا ، أتعرف سبب ضعفه ؟ قال : لا . قال : ان السبب لأنه يلعب بيده » . وهذه أول مرة سمعت هذا التعبير عن العادة المضرة ، لكنني انتبهت له وعاهدتُ نفسي أن أبطلها . وقد فعلت وشعرتُ بتحسّن كليّ في صحتي ، وكنت قد نقلت الى اللوكندة فساعد نقلي على تقدم صحتي .

قضيت السنوات الأولى من تلك المدة والصَغار غالب على ذهني، ألهو بما يلهو أمثالي ، لا أعرف معنى الاقدام والاحتفاظ بالفراغ من وقتي أو الاقدام . ولكن لم يكن لي فراغٌ يساعدني على اللهو لأن المطعم كان يفتح من الصباح الى الساعة ٣ أو ٤ عربي مساء، أي نحو الساعة ١٠ أو ١١ بعد الظهر . على اني كنت أسترق الفرص وأتمتع بشيء من الملاهي التي كانت تجري بالقرب من محلنا ، يوم كان على شارع عربات الشام . فقد كان بجانبه قهوة على نسق القهوات البيروتية في تلك الأيام : ساحة

كبيرة مسقوفة بالقرميد تُقدم فيها القهوة والشيشة لمن يشاء ، ويلعب أهلها في أثناء النهار بالدامة أو النرد أو الورق أو الخنقلة أو الكاب ، فإذا غربت الشمس أقاموا فيها الألعاب والتمثيل وأهمّها لعب السيف ، وتشخيص كراكوز (خيال الظل) ، والشعوذة ، وحكاية القصص . فكانت هذه الألعاب تتناوب وتتبادل حسب الفصول أو أحوال أخرى . وكان دكاننا يطل على القهوة من باب خلفي يمكن مشاهدة كل شيء وأنا على كرسي هناك ، وكنت أكثر شغفي من هذه الملاهي سماع القصص ، فكنت اذا رأيت القصّاص الحكواتي يمشي ذهاباً وإياباً يتلو من قصّة عنتر أو الزير أو غيرهما والناس جلوس يصغون له ، وهو يمثل مواقف الحديث بإشارته وصوته، كنت أنسى موقفي وأصغي بكليتي . وكان الحكواتي يقصُّ في دور السنة القصص الأربع المشهورة يومئذ وهي فيروز شاه ، وعنتر ، والزير ، وعلي الزيبق . فإذا فرغت السنة عاد الى أولها . فسمعتها غير مرة ، ولا اعتراض على سماعها ولا أشكو من الوقت الذي أضعته فيها .

وأما كراكوز ــ وهو الذي يسميه المصريون خيال الظل ــ فقد كان له سوقٌ رائجة في ذلك العهد . وإني لأستغرب الآن كيف كان الناسُ يحضرون لمشاهدة ذلك التمثيل ، فقد كان تمثيلاً بذيئاً كلُّه فحش وسوءُ أدب . ولا غرو فإنه كان يمثّل آداب أحطّ طبقات بيروت والذين يُعْرفون في اصطلاح أهل المدينة (بزعران عَصّور) وهم طائفة من المتشرّدين كانوا يملأون ساحة عَصّور (على الصور) ، ويمتدون الى

ساحة البرج ، لا شغلَ لهم إلاّ الدعارة والسرقة والتحرش بأبناء السبيل، يمشون تقريباً عُراة الأبدان ، ينامون في الطرق ، لعلهم بقية العيّارين في الدول الإسلامية ، ولكنهم من أبلـغ مـــا بلغت إليـه البشريـة من الانحطاط شكلاً وكلاماً . فاكثر المتفرجين على كراكوز منهم . وكنت أرى أناساً عليهم لبـاسُ أهـل الكياسة كانوا يحضرون لمشاهـدة ذلـــك التمثيل ، وأنا لم أكن اضطر للجلوس معهم على مقاعد الخشب في القهوة لمشاهدة التمثيل إذ كان يكفيني أن أطلّ من باب دكاننا فارى ما يرونه عـلى أهون سبيل . كنت أستقبح مـــا أسمعه من الكلام البذيء ، أو أشاهده من التمثيـل السفيه ، وأشعر بخجل منـه ، ولكنني كنت أعـدّ ذلـك ضعفـاً مـــني . إذ كنت أرى سائر الحضور فرحـين يصفّقون ويستزيدون ، وحديثهم لا يقلّ سفاهة وبذاءة عما يسمعونه ، ولا عجب فهم أبناء مدرسة واحدة .

أما لعب السيف أو الحكم (اللعب بالعصي بدل السيف) فـلم يكن يجري غالباً إلاّ في ليالي رمضان في تلك القهوة أو قهوة تقابلها ، وأقدر أشاهد كليْهما من أحد بابيْ دكاننا . وكنت أحبُّ مشاهدة لعب السيف يومئـذٍ لأنـــه يحمّسُ ويهزُّ النشاط والحمـاس ، ولكنني كنت أخشى الجلوس مع المتفرجين لصغر سنّي ، فاكتفي بالمشاهدة خلسة . وكان لاعبو السيف يومئذٍ جوقاً له رئيسٌ يعرف بقدّور دوغان من المسلمين ، وسائر اللاعبين من المسلمين أيضاً . ولكن يحضر اللعب كلّ الطوائف . والوجاهة والصولة للمسلـين . والُحكْم يومئـذٍ عرفي اذا شاء ضابط

المدينة فعل مـــا شاء . وجرت حادثة كادت تُفضي الى مقتـله بعثت الحكومة على إبطال لعب السيف ، وذلك أنه كان في جملة الذين يحضرون ذلك اللعب من المسيحيين شاب اسمه يوسف صعب ، كان شديـد العضل خفيف الحركة رغم سمنه ، وكان ماهراً بلعب السيف . فاتفق ذات ليلة وجوق دوغان يلعب فينتقـل السيف من واحـد الى آخر ـ وعيون الحاضرين شاخصة لترى الفـائز فتُطريه أو تصفّـق له ـ تقـدم قدّور دوغان الى يوسف صعب وقدم له السيف والترس وطلب إليه أن يلعب. فاعتذر يوسف لعلمه بما قـد ينجم عن ذلك من النفور بـين الطائفتين ، ولكنهم تلطّـفوا كثـيراً في دعوته ، فوقف ولعب دوراً أعجب بـــه المشاهدون ، وكنتُ في جملتهم ، وقلبي يخفـق كلّ مـا رأيتـه يثب من موقفه الى موقف آخر ويضرب ويتلقّـى الضرب بخفة ومهارة . ورأيت الشَـرَرَ يتطاير بين السيوف والأتراس ، حتى خاف الناس أن تتحول المسألة من المسالة أو المطايبة الى الفاجعة . فأوقفوها وقد ظهر للناس أن يوسف الفائز . فأوغرت صدور بعض الحضور من المسلمين ، وأرادوا أخذ الثأر في الغد . ولما جاء الغـد بلـــغ يوسف ما هم عازمون عليه ، ففـّضل نزع السبب ، ولم يقبل النزول حتى عرّض الحـج قدّور دوغان بذكر الذين يستصغرون يوسف وأن من ظن نفسه أبرع منه فليتقدم . قال ذلك مع كونه مسلماً وأظهر الانتصار ليوسف . ولعـله فعـل ذلـك ترغيباً للناس في الحضور (ركلام) ، فلم يعد يوسف يستطيع السكوت ، فنهض وتناول السيف ، فتقدم لمقارعة رجـل من أقارب ضابط المديـنة

في ذلك العهد (سعيد آغا) ، وحمي اللعب بينهما حتى أحمرّت العيون ، وأوشك أن يقع خصام . فتداخل الضابطة في الأمر وخافت الحكومة عاقبة ذلك فمنعوا لعب السيف من ذلك الحين في القهوات العمومية .

تلك كانت ملاهي الوسط الذي كنت فيه ، أما عشرائي فلم يكونوا أقل خطراً على الآداب من أولئك . فاكثرهم كانوا من أهــل البطالة للأسباب الـتي تقدمت لأن الزبائن الذين لهم أشغال أو كانوا من أهـل البيوتات فكانت عشرتي معهم تقتصر عـلى الأخذ والعطاء أو المحاسبة ، فيأكلون ويدفعون ما عليهم وينصرفون ، وإنمــا يبقى للعشرة أهل البطالة الذين ليس لهم عمل يلهون بـه ، فهؤلاء كان يجتمـع عنـدي منهم بضعــة يقضون ساعات الفراغ في العمل عندي بين الغداء والعشاء ، وأحاديثهم لا تختلـف عن أحـاديث الزعران إلاّ بالشكل أو اللهجـة . فيتفاخر أحدهم بما ارتكبه من الفحشاء بانه تمكّن من فلانة امرأة فلان الوجيه ، ويفتخر الآخر بحيلة طلاها على الزوج أو الأم ، وبتفنّنه في أساليب الخداع . ويفتخر الآخر باقتداره على الفحشاء ، وكان فيهم شاب مقوّس الظهر ، وسمعتُـه يفتخر أنه ذلك التقوس من نتائج الافراط .

كنت أسمع ذلك منهم وآسف في سرّي لأني لا أقدر أنا فهم شيء مما يفتخرون به . وقد حدثتني نفسي مراراً أن أعمل مثل أعمالهم ، فأشعر بتقاعدي وأتأسف لضعفي . وربمـا غطّيت خجـلي بحكاية زعمت أنهـا جرت معي وفيهـا شيء ممـا يتفاخرون بـه . تلك كانت آداب عامـة بيروت .

وكان يطربني من أحاديث ذلك الدور من حياتي ما كان يجري بين طائفة أخرى من أهل البطالة . كانت مجالسهم قاصرة على الافتخار بالشجاعة . فيزعم أحدهم أنه لقي جماعة فهزمهم ، أو أنه دخل مكاناً مظلماً رأى فيه العفاريت فطردهم بالبسملة ، أو نحو ذلك من الخرافات والغرائب . وكانت هذه الأحاديث تلذ لي وتثير فيّ الحماس لتقليد الشجعان وأهل المروءة . وكان في بيروت عدة شبان اشتهروا بالبسالة كانوا موضوع حديث الناشئة في مجالسهم . فمن النصارى نخله باولي وإخوته ــ وكان يشتغل بالخياطة الافرنجية وأهلهم يونان ــ أصغرهم قسطا باولي الذي قُتل غدراً . وكانوا كلهم بواسل وأهل أريحية . والحاج فارس كان خفيفاً في حركات دفاعه بالسكين . وأسعد بيضه من أهل المزرعة كان فتاكاً خفيف الحركة ، ماهراً بضرب العصا ولعب الحكم . وله حديث طويل وأقاصيص له معي ، ربما ذكرت في ما يلي . ومن النصارى أيضاً شاب ماروني اسمه اسكندر الأبرص ، كان يذبح الخنازير ويبيع لحمها ،وكان شديد الساعديْن . ومن شبان المسلمين الذين اشتهروا بالشجاعة ابراهيم عبد العال وأخوه عثمان ، وأولاد السردوك ، والغزاوي وغيرهم . وكانت كل طائفة تبالغ فيما يُروى عن أبطالها من أدلة البسالة والقوة .

وهناك مجالس قد تجمع بين رجال الفتوة وأبناء الهوى أو أحدهما دون الآخر ، أعني مجالس الشرب . فهذه كانت كثيرة جداً يجلسها العاقل والجاهل . إذ مرّ على البيروتيين دهر وهم يعتقدون فائدة العرَق

قبل الطعام والنبيذ مــــع الطعام ، ويندر من لا يتعاطاهما أو يتعاطى أحدهما . ولا أهمية لمجالس الشراب في موضوعنا إلاَّ اذا كان أهله[1] من أهل الفتوة الذين اذا دارت الخمر في رؤوسهم عربدوا وصاحوا وتفاخروا. وكان من جملة الذين عاشرتهم في أثناء تلك الفترة جماعة من هؤلاء ، ولم أكن أجالسهم على الشراب ، ولكني كنت أشاهدهم وهم يشربون في الحوانيت ، وفيهم من يدّعي الصحبة ، وأنا اعتبره لشهامته وبسالته أو وجاهته في شيء من الأشياء فاحب مجالسته ، ولكنني لم أكن أقدر على الشراب ، واذا سُقيت كاساً لا أراني أرتقيت الي مـا يكونون فيـه من النفوس العالية والاعتزاز بالخيـــلاء . فكانت العادة اذا جلس ثلاثة أو أربعة للمعاقرة يطلب أحدهم خمسينيّة فياتونه بها. فيصبّ له ولأصحابه، حتى اذا فرَغت طلب الآخرُ غيرها . وهكذا الآخر حتى لا يكون لأحدهم على الآخرين فضل . وقـد يستأثر أحدهم بدفـع الكل اذا كان وجيهاً أو ذا فضـل ، وقلّما يعترفون لأحدٍ منهم بـذلك . وربما قامت القيامـة عـلى من يسبـق في ذلـك . واذا دارت الخمر في رؤوسهم غنّـى أحدهم موّالاً بغدادياً ، وينتبهون لمغناه، وقد يؤلونه لشيء أراده منهم ، إما مدحاً واطراءً أو انتقاداً أو تعريضاً ، فيترتّبُ على الآخر أن يجيب على الموال هو أو أحـــد رفاقه أو عشرته . فـإذا كان الغنـاء مطايبة انصرفت الجلسة في خير ، وإن كانت انتقاداً أو تعريضاً تحولت الى خصام ينتهي باستلام السكاكين وإشهار العصيّ .

---

(١) كذا في الأصل .

فكنت اذا حضرت مثل هذه الجلسة أحسد أولئك الشبان على بديهتهم في الأجوبة ، وأشعر بقصوري عن مجاراتهم في التحمس والصياح بالغناء أو نحوه ، لأني لم أكن شاهدت وسطاً غير هذا ، فأحسب الفضيلة أن يغلب الإنسان بمثل ذلك .

تلك آداب عامة البيروتيين في ذلك الحين ، فإن عامتهم كانوا من الجهلاء لقلة المدارس عندهم . ويغلب في أحاديثهم هجر القول والألفاظ البذيئة . ولم يكن ذلك الهجر خاصاً بالفقراء والعامة، ولكنه كان يتناول الأغنياء أيضاً . فقد كان أهل بيروت يومئذٍ طبقتين : العامة وهم الرعاع والصنّاع وسائر أهل الصنائع الدنيئة والتجارة الصغيرة ، والخاصة وهم رجال الحكومة وأهل الثروة . والآدابُ الاجتماعية ، كانت واحدة في أساسها من حيث العيشة العائلية وآداب الحديث ، والمؤاكلة والمشاربة ، وموائد الطعام ،أو السكن أو غيرها، لا تختلف إلاّ قليلاً . فكانت الألفاظ البذيئة غالبة على ألسنة الأغنياء كما كانت غالبة على ألسنة الفقراء . وقِسْ على ذلك المسكرات ونحوها مع اعتبار التفاوت في الوسائل والأسباب .

ونشأ في أثناء ذلك أي بعد حركة الستين طبقة ثالثة في أهل بيروت تخرّجت من مدارس الارساليات الدينية المسيحية وخصوصاً الأميركان والانكليز والالمان . فإن هذه الارساليات تقاطرت على بيروت بعد احتلال الفرنساويين على أثر حادثة سنة ستين فانشأوا المدارس لنشر العلم والأدب على نهج التمدن الحديث في أوروبا . فنشأ من ذلك طبقة

من الفتيـات المهذبات تخرّجْنَ من مدرسة مسز سوط الانكليزية ، أو المدرسة الانكليزية . ونشات طبقـة من الشبـان المتخرجين في المدرسة الليلية السورية ، أو في مدارس اليسوعيين ، أو البطريركية أو غيرها . فهذه الطبقة الثالثة عليها كان المعوّل في تغيير الآداب الاجتماعية مما كانت عليه الى ما صارت إليه ، حتى صارات آداب المعاشرة في بيروت تضاهي أرقى آداب الافرنـج من حيث التـــأدب في الحـديث أو الجلوس أو غير ذلك .

غير أن هذه الطبقة نمت تدريجيا ، وكانت في أول ظهورها تعدّ في نظر عامة البيروتيين بدعـة في التخنّـث أو الخلاعة ، ولا سيا لما أخـذ أولئك التلامذة في لبس الزيّ الافرنجي ، فإنهم لاقوا احتقاراً كثيراً . وكنت أنا أيضـاً أنظر الى أبنـاء المدارس وبناتها نظر الاحتقار لأنهم لا يخاصمون ولا يضاربون ولا يسكرون .

غير أن هـــذا الاعتقاد لم يطل مكثه في ذهني ، لأني لم أكن أرى نفسي قادراً على مجاراة أهل الفتوة ، ولا أرى لي رفاقاً يقبحون لي هذه الحركات ، حتى أتيح لي معاشرة صديق أديب كان له تاثير في تغيير مستقبلي وإن لم يكن ذلك عن عمد منه سآتي على ذكره .

رأيت تقصيري في مجاراة أولئك الشبان في التفاخر بالضرب والقتل والشرب ، وأنا مثل كل شاب في أول شبابه أحب العلى وطلب الشهرة . فرأيت مقامي بين هؤلاء كالدجاجة الغريبة . قضيت في هذه الأحوال نحو

ثلاث سنوات او أربع وأنا لم أقرأ كتاباً ولا استفدت كلمة ، حتى نسيت ما كنت تعلمته في المدرسة ، ونسيت رغبتي في الدرس وحب العلم . فاتفق أني عرفت الشاب الذي أشرت إليه واسمه خليل شاول ، أصله من من دير القمر ، وكان أكبر مني سناً ويشتغل بتصليح ساعات في محل عجوري في سوق الطويلة . عرفتُه بالصدفة . التقيت به عند جارٍ لنا من طائفة (المارونية) يكوي الطرابيش . فلما تقابلنا تحاببنا كثيراً . أحببتُه كثيراً ونظرتُ إليه نظرة الاعتبار لما آنست فيه من الشهامة والأنفة واللطف . وهو استانس بي .

وكان له عدة أصدقاء يجلّونه ويعتبرونه ، وأكثرهم يشعرون أنه أرقى منهم عقلاً . فلما تعارفنا صرنا نتواعد على الخروج للفسحة . كل أحدٍ مرة بعد الظهر . نخرج الى ظهور الأشرفية او الكرنتينا او غيرهما من أماكن المنتزهات ، لا نحملُ معنا من أدوات السرور شيئاً . وقد يحملُ بعضنا زجاجة صغيرة من العرقي لا يلحق الواحد منها مصّة . وكان من جملة الرفاق شاب رخيم الصوت اسمه أسعد مسعد ، كان يطربنا بغنائه . فما ترافقنا مدة حتى شعرتُ بانعطاف خاص الى خليل ، وهو أحسّ ذلك الإحساس نحوي . فصرنا اذا خرجنا ونحن ١٥ أو ٢٠ شاب للفسحة ننفرد انا وهو غالباً على حدة ، ونستغرق في الحديث . وقد أفادني أنه كان يحفظ أشعاراً كثيرة ويحسبني أحفظ شيئاً . فكان يقول البيت من أبيات المتنبي أو الفارض [1] وهو معجب به ويتوهم أني فهمت معناه . وكان ذلك جديداً عندي . ولذّ التفكير في معاني الشعر ،

(١) كذا في الأصل .

فصرتُ أقرأ وأفسرّ ، وأزداد كل يوم رغبة في قراءة الأشعار . لأن تفهم معانيها كان يزيد رغبتي في مطارحتها ، ولم يكن من الرفاق أحد يلذ له هذه المطارحة ، ولربما نبذونا واشتغلوا بالشراب والغناء ، ونحن نتباحث في معنى بيت ، ونتجادل في قصد قائله منه .

فأول شيء رغّبني في مطالعة الشعر . فاقتنيت المتنبي والفارض وهما ... [1] في بيروت ، وأخذتُ أقرأهما وأتمعّن في معاني ما أقرأه ، فإذا وُفقت لفهم بيت من الأبيات الغامضة لذّ لي ذلك ، كأني فتحت بلداً أو لقيت كنزاً ، فازداد رغبة في المطالعة ، وازداد تعلقاً بالصديق خليل . حتى انحلت جمعيّتنا المشار إليها بعد سنة او سنتين ، وتشتت رفاقنا ، وبقيت انا وخليل كأننا جسم واحد ، وله الفضل في ترغيبي بالمطالعة فإنها كانت فاتحة مستقبلي الجديد .

وكان لخليل أصدقاء من تلامذة المدارس وبعضهم من المدرسة الكلّية عرفتهم على يده ، وسمعتُ منهم لأول مرة تقبيح ماكنت أحد أهل المعاقرة عليه من الاقتدار على الصياح وشرب المسكر واستلال السكاكين ، حتى إني أردت أن أتعود المسكر كما يفعلون فاوعزت إلى جارٍ لنا اسمه اسطفان الجمال كان يبيع التبغ والعرق أن يبّرد لي خمسينية خفيفةً عن والدي لأشربها بالتدريج أثناء اشتغالي نحو الغروب الى العشاء. فبرّدها لي، فخرجت أولاً فاخذت منهاقدحاً، وبعد قليل أخذت قدحاً ثانياً، ولم أتناول الثالث حتى أخرجت كل ما في جوفي ، فاصابني الدوار ، فتجلّدتُ لئلا

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل .

يشعر والدي بما فعلت،وقد أسفت في باطن سرّي أني لست أهلاً للفتوة . ولا تسل عن انفراج كربتي عندما سمعت أولئك الأصدقاء يقبّحون عادة السكر وغيرها من أعمال أولئك الشبّان ، ويحسّنون التعقل والهدوء والمسالمة . فاحسَسْتُ كأن غشاوة أزيحت عن عيني ، ورأيت أني كنت على هدًى ، وأنا أحاول أن أضلّ نفسي . فزدتُ تمسّكاً بأولئك الأصدقاء ، وصرت أحكّم فكري في المسائل وأنا قليل المعرفة قليل الاختبار .

واتفق في أثناء عشرتي لخليل ورغبتي في الاستفادة أن أحد زبائننا المعلم سعود الطويل من أهل الشّياح بجوار بيروت كان جالساً للمؤانسة في مطعمنا في ساعة راحة ، فذكر أنه فتح مدرسة يعلّم فيها الشبان اللغة الانكليزية ساعة نحو الغروب . وكان اسم اللغة الانكليزية غريب على مسامع البيروتيين ، لأنهم لم يكونوا يعرفون من فضائل الانكليز إلاّ قولهم (سكرة انكليزية) ، لكثرة من كانوا يشاهدونهم من البحرية الانكليز سكارى في شوارع المدينة ، فان بعض الدوارع الانكليزية التي كانت تتجول في البحر المتوسط كانت ترسو في ميناء بيروت أحياناً وينزل بحارتها للفسحَة بعد أن انقطعوا في دورانهم أسابيع وأشهراً ، فيطوفون البلد ، ياكلون ويشربون ، ويستولي على أكثرهم السكر ، وإذا سكروا عربدوا بلسان لا يفهمه أحد . فدار على ألسنة البيروتيين قولهم « سكرة انكليزية » للمبالغة في السكر ـ أما اللغة الانكليزية فقَلَّ الذين كانوا يفهمونها ، ومنهم جماعة التراجمة يصحبون البحّارة في

أثناء طوافهم في الأسواق يتوسطون بينهم وبين الباعة ويقتسمون الأرباح أو ينالون جعلاً على ما يباع .

فلما سمعتُ المعلم سعود يذكر المدرسة لا أدري ما الذي رغّبني في تعلم هذه اللغة . لا أذكر اني فعلت ذلك عن طمع في مستقبل ولا رغبة في الترجمة لمن ياتينا من البحرية الانكليز للأكل .لأني كنت أشدّ خجلاً من أن أستطيع ذلك ـ أعلم أني سالت المعلم سعود على مقدار الأجرة فقال لي ثلاثين غرشاً بيروتياً (أي أقل من ستة فرنكات) في الشهر . وكان المعلم سعود ياكل عندنا ، فقلت إنه ياكل باكثر من هذه القيمة كثيراً ، فنقطع الأجرة من طعامه ولا أشعر بدفع شيء . فقلت لوالدي : إني أرغب أن أتعلم اللغة الانكليزية . فلم يعارضني لكنه كان يتعجب كيف أقدر على ذلك ، وأنا مشغول في المطعم طول النهار وبعض الليل . وكان سني في ذلك الحين نحو ١٥ سنة ، فصرتُ أتردّدُ على المعلّم في بيته ، وكان التلامذه الذين يدرسون معاً ١٥ تلميذاً ، وكلهم شبّان وكهول ، منهم كانوا يترجمون للسيّاح ولغتهم ضعيفة ، ومنهم سفرجية يريدون الارتقاء إلى طبقة التراجمة . ولكنهم ما لبثوا أن استصعبوا درس هذه اللغة ، فاخذوا يتفرّقون عن المعلم . ولم يمض شهران حتى بقيت أنا وواحد آخر من الرفاق اسمه درويش صفير . وهو الآن في مصر من كتّاب الحساب الماهرين . بقيت أنا وهو فقط ، وكان المعلم يفضّل صرفنا إذ لا يكفيه أن ياخذ ستين غرشاً منا على ساعة كل ليلة . ولما تمّ الشهر

الرابع ودخلنا في الخامس قال لي المعلم : إنك صرتَ تعرف الانكليزية كما أعرفها أنا . فصدّقتـه لأن الإنسان في شبابه وكهولته يُخْدع بإطراء الناس عمـلاً ينسبونه إليـه وهو لم يعمله ، أو لا فضل له في عمله ، فكيف في سنّ الغرور . وقـد ساعدني على التصديق أني كنت صرت أحسن الترجمة في كتاب الريد الثالث . وأكـد لي المعلم أني صرت عارفاً اللغـة الانكليزية جيـداً . أمسكت عن الذهاب إليـه وجربت نفسي بمطالعة كتاب رحلة كوك في جزائر المحيط ، فرأيت نفسي أقل كثيراً مما كنت أظن . فأخذتُ في الدرس لنفسي .

ساعدني على اكتساب ما اكتسبته بنفسي بالمطالعة ونحوها اني كنت قوي العزيمة قوي البنيـة صبوراً على العمل ، خذ مثـلاً درس اللغـة الانكليزية، قد ذكرت لـك اني كنت مشتغلاً كل ساعات النهار وبعض ساعات الليل في المطعم مع والدي لايستغني عني لحظة، لأن كل الحسابات والأخذ والعطاء بيدي ، فلا فراغ عندي إلا في الليـل بعـد الرجوع الى البيت ؛ فكنت أضيء المصباح أجعله على الشباك بجانب سريري وأقضي الساعات في الدرس والمطالعة . وكثيراً ما تشرق الشمس وأنا جالس. دقّ والدي باب غرفـتي مرة وكنت جالساً أكتب وأقرأ على سريري فنهضتُ وفتحت له وأنا أحسبه لا يزال ساهراً وأتى ليحرضني على النوم كعادته، فلما فتحت الباب رأيت الفجر قـد لاح فسألني : « مـا بالي أراك قـد استيقظت باكراً في هذا الصباح » .

فقلت : إني لم أنم بعد .

فغضب ، وأخذ ينصح لي أن أرفق بصحتي ، كيف أسهر الى طلوع النهار ؟ فاعتذرت ولكنني عدت الى أمثالها رغم إرادتي .

وبلغ من اجتهادي في درس هذه اللغة اني كنت وأنا أطبخ في الصباح، وطبخنا عبارة عن وضع عشر حلل دفعة واحدة على الكوانين : واحدة للرز وأخرى للفصولية وأخرى الخ ... وأنا أعالجها كلها ، أفتح الكتاب الانكليزي للمطالعة أو الترجمة، فاقرأ فيه فإذا احتجت الى تحريك حلّة، أو تقطيع لحم ، وضعته مقلوباً على البشتختة وحركّتُ ثم عدت إليه .

وحدثتني نفسي في أثناء ذلك أن أؤلف قاموساً للغة الانكليزية والعربية ، ولم يكن قاموس أبكاريوس قد ظهر ، ولا أعرف لها قاموساً . فأتيتُ بقاموس دجلس ، وهو في الانكليزي وحده ، وكان لليسوعيين قاموس للغتين الفرنساوية والعربية ، واستعنت بالقاموسيْن وبالقرائن ، وبما كنت أعرفه من الألفاظ على وضع قاموسي الانكليزي العربي ، وكتبت منه الى حرف E ، ثم مَلَلْتُ ، وحقّي أن أَملّ لأني كنت قليل المعرفة باللغة ، فلما توقفت عن العمل حزنتُ حزناً شديداً ، إذ سبق الى ذهني اني خُلِقْتُ ضعيف العزيمة ، قليل الهمة ، وتشاءمتُ أني لن أعمل عملاً وأصبر عليه حتى يتم ـ وأنا يومئذٍ في السادسة عشرة من العمر .

على أنّ ذلك لم يثن من عزيمتي عن المطالعة . فصرت أطالع في العربية كتبَ الأشعار والأدب ، وفي كتاب مجمع البحرين . فقد كان له شأن عظيم عندي ، لأنه يساعدني على معرفة ألفاظٍ لغوية أفاخرُ أقراني

بمعرفتها . وجرّتني مطالعة الشعر الى محـــاولة النظم ، فكنت أنظم البيت والبيتين ولا أعرف وزنها ولا إعرابها. ولابتياع مجمع البحرين قصة يحسن ذكرها على سبيل الفكاهة ولا تخلو من فائدة ، ذلك أني لما أخـذ حبُّ المطالعة ينمو فيّ وكنت أسمع بكتاب مجمع البحرين وأحب اقتناءه لكنني كنت استغليه، لأن ثمنه كان على ما أظنُّ أربعة فرنكات أو خمسة. ففي يوم كنت جالساً بالمطعم مرّ غلام وبيده هذا الكتاب مستعملاً وهو يعرضه للبيع ، فاشتريتـه منه بتسعـة قروش بيروتية ، أي أقـــل من نصف الثمن ، وفرحتُ بـه كثيراً . ولما رجـع والدي من فسحته نحو الغروب ـ لأنه كان يخرج كل يوم بعد الظهر لترويح النفس مع صديقٍ له اسمه حنا الزيلع كان في الأصل شريكه ـ فلما عاد نحو الغروب رأى الكتاب وسألني عنه . فقلتُ : إني ابتعته بتسعة قروش. ولم يكن يعرف قيمته لأنه لا يقرأ . وظن أن أحد الناس غشّني به فزعل ، وقبض عليه بيده وقال « أتدفع بهذا الكتاب تسعة غروش وتبدل الدراهم بورق » ؟

فزعلتُ ولم أجبْـه ، وظهر عليَّ ذلك وهو لا يزال على اعتقاده إني أخطأت . ولما انصرفنا الى البيت في المساء وكانت الوالدة قـد أعدّت لنا العشاء فأظهرتُ اني لا أريدُ الطعام . وذهبتُ الى المنامة ، وأنا أتوقّع أن يدْعوني ولا يتركوني أنام جائعاً . وسمعت والدتي تعنّفُ والدي عـــلى إغضابي حتى نمت بدون أكل ، ولكنه أصرَّ على رأيه . واتفق أن أحد جيراننا أمين فياض من وجهاء بيروت أتى للسهرة عندنا في تلك الليلة ، وكان يتودّد إليَّ . فسأل عني فقيل له : إني نمت . واغتنمت الوالدةُ هذه

الفرصة وشكت إليه عناد والدي . فسأل عن سبب غضبه فقال : إنه يصرف الدراهم في شراء الورق بلا فائدة .

فأجابه : أشكر الله يا أبا جرجي أن ابنك ينفق الدراهم في شراء الكتب وليس في السكر أو نحوه .. إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها .

وقد سمعتُ كلماته في أذني وأنا أتظاهر أني نائم ، وللحال اشتد ساعد والدتي فأيقظتني وأجلستني على المائدة وطيّبت خاطري ، وكذلك والدي ، ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني وقد أفادتني أيضاً .

وصدر في أثناء ذلك المقتطف . وكان في سنته الثانية على ما أظن . فأطلعني بعض الذين كانوا يتردّدون علينا من معلمي المدارس على عدد منه فيه مقالة عن الخسوف . فقرأتُها ، ولما فهمتها شعرتُ بلذّة عظيمة لأني علمت سبب الخسوف وكيف أن الأرض تدور وتتوسط بين القمر وبين الشمس فيحصل الخسوف . وطالعت في أعداد أخرى مقالة عن الغيم وسبب المطر ، فازدادت رغبتي في الاطلاع على النواميس الطبيعية، فكنت أتمنى أن أحصل على كتاب في الفلسفة الطبيعية وهو وحيد في العربية يومئذٍ ، أي كتاب العروس البديعة لقشدودي ، ولكنه كان غالياً جداً . فأتفق أن بعض تلامذة المكتب الطبي الشاهاني رجعوا من الاستانة رغبة في إتمام دروسهم في المدرسة الكلية ، عرفت منهم سمعان الخوري ابن أحد أعيان الكورة (اليوم الدكتور سمعان خوري) كان يتردّد على مطعمنا للأكل، لأنه غريبٌ في بيروت. فَسُرِرتُ بمعرفته،

وكان لي فيَّ ميـل كثـير لمعاشرة تلامذة المدارس الكبرى ، ومحادثتهم . وكنت أعتقد فيهم التفوق على سائر الناس . واذا جالست أحدهم نظرت إليه نظري الى الاستاذ . فبعد أن تردّد سمعان عليّ واستأنستُ به ، وهو لطيف العشرة،وكان يرى مني ترحاباً وإيناساً ارتاح الى مكاشفتي أحواله، فقصّ عليّ غرضه وأنه ينوي الدخول الى المدرسة الكلية لدرس الطب ، ولكنه لا يعرف الطبيعيـّات وهي لازمة قبل الدخول في الطب . وسالني عن الوسيلة لدرس هذا الفرع . فقلت له : أن أحسن كتاب هو العروس البديعة . فاشتراه وأتى به إليّ وقال : إني لا أفهم ما أقرأه فيـــه ، لازم أتعلم ما تعلمتُـه في الاستانة باللغة التركية . فصرتُ أقرأ معه وأفسرّ له ما لم يفهمه ، فاضطررت بذلك أن أفهم المواضيع جيداً . ولم يطل ذلك، ثم استقلّ هو بالدرس ولعله استعان بمعلم،ولكنني أذكر جيداً اني استفدت في مطالعة ذلك الكتاب شيئاً .

وأخذت من ذلك الحـين أحدّث نفسي هـل يجب أن أبقى في هـذا الشغل ، ولا يهمني أن أبقى به لو كان يُساعدني عـلى اكتساب العـــلم . وشعرت بانتقال من طور الى طور . وكنت قد أدركت السادسة عشرة، وبعد أن كنت أعتقد ضعفي وعجزي وأني وُجدت لأقلد الآخرين وأنّ ما يجري حولي هو الصواب ومـا عـليّ إلاّ أن أقلّده فـإذا عجزت عن تقليـده أسفت لضعفي ـ شعرت أني إنسان ولي إرادة ، وأن مـا يجري حولي أكثره خطأ ، وأني كنت عـلى هُـدى أو صواب ، وأنا أحسب نفسي مقصراً . ووافـق ذلـك دخولي في سن الغرور والأوهام ، السن

الذي يستولي فيه على الشاب الغرور فيحسب نفسه أعقل الناس ، وأن له مستقبلاً مجيداً فيؤاخذ النـاس على تقصيرهم في تقديره حـق قـدره ـ ولكن الجبانة التي فُطِرْتُ عليها كانت تخفّفُ من غروري .

كنت في الطور الأول من مكثي في اللوكندة أعتقـد أن لابسي البنطلونات أرقى عقـلاً وأوسع معرفـة وأصـح حكماً من لابسي السراويل ، لأن أكثرهم من المتعلمين . فلما فتحت عيني وقرأت شيئاً من المبادىء العلمية ضعف هذا الاعتقاد فيَّ نوعاً ، وصرت لا أستغرب مجاراة أهل السراويل والقنابيز لأهل البنطلونات والبرانيط .

ولما رأت فيَّ أمي هذا الترقي ساعدتني عليـه وأعادت الكرّة عـلى والدي وطالبته بإخراجي من اللوكندة . فلم يُعارضها وإنما كانت العقدة انك يجب أن تبحث عن الشغل الذي ينبغي أن أتعاطاه اذا خرجت ـ وهو يعتقد أن صناعة الطبخ أكثر الصنائع ربحاً اذا راجت ، وكثيراً ما كان يدافـع والدتي في ذلـك وهي تشدد في نقـدها للوساخـة والاشتغال ليلاً نهاراً .

وكنت قد تعرفت على يد شاول الى كثيرين من أصحابه من كتّاب التجارة في سوق الطويـلة وغيرهم ، وصرتُ أجـد نفسي بينهم غريبـاً قذراً رغم ما كنت أؤنسه من تلطفهم في إطرائي . فاصبحت اذا شاهدت أحدهم أمام طاولته والدفتر مفتوح بين يديه وقد وضع القلم وراء أذنه وثيابه نظيفة وطاولته نظيفة يخفق قلبي شوقاً الى مثل هذه الحالة . فلما

تباحث والديّ بما يفعلانه بي، ذكرت لهم أن أشتغل كاتباً في بعض المخازن بسوق الطويلة . فوافقاني ، غير أن ذلك يقتضي له تعلّم حساب الدوبيا لمسك الدفاتر . فقلتُ : أتعلمه . وكان لهذا الفن يومئذٍ معلم مشهور اسمه الخواجة حبيب سعد كان يعطي دروساً خصوصية في منزله لمن يريد درس حساب الدوبيا ، وعرفت ذلك فسعيت في التعلّم عنده ، فاتفقنا على ٢٥٠ غرشاً على تعليمي ذلك الحساب بلا تعيين مدة محدودة . فدفعتُ المبلغ وصرت أتردد الى منزل الأستاذ ، وعنده بضعة من الأدباء يتعلّمون هذا الفن وأنا أحسبهم أقدر مني على التعلّم لأنهم من أبناء المدارس ، ولكن لم يمضِ شهران حتى اتقنت الدوبيا ، ورأيتُ معلّمي كثير الإعجاب بذلك ، وأنا استغربُ سبب إعجابه ، ثم لم استغربه لما علمت أن رفاقي الذين كانوا يدرسون معي قضوا أشهراً قبل مجيئي ، وظلّوا أشهراً بعدي . ولا أزعم لي فضلاً عليهم بغير الاجتهاد لأني طلبت العلم شوقاً مني ، وهم سيقوا إليه بإرادة آبائهم .

ولما أتممتُ الدوبيا بقي أن أدخل في مخزن ، فعرفني أحد الأصدقاء بمحل الخواجة غرزوزي في سوق الطويلة ، واتفقتُ أن أنزل لأشتغل عنده . فلبستُ ثياباً نظيفة ، كما يفعل الكتّاب والحسّاب ، ونزلت الى المخزن وشغلي أن أنفض الخزائن ، واذا أتى زبون ساعدتُ الخواجة غرزوزي في استحضار أثواب الحرير أو غيرها ليتفرج الزبون . واتفق أني قضيتُ النصف الأول من النهار ولم يأت أحد ، فشعرتُ بالوحدة وأني مأمور مقيّد . وكنت في اللوكندة صاحب الأمر والنهي . فانقبضت

نفسي وما صدّقتُ أن صار وقت الغداء حتى استأذنت بالذهاب الى الطعام ولم أرجع ، فعدتُ الى المطعم .

على انني اكتسبت شيئاً من استقلال الفكر فخرجت من دائرة الانقياد الأعمى وصرتُ أعتدُّ بما يخطر لي مما يخالف الشائع حولي ، وتجاسرت بالتدريج أن أنتقد أقوال الآخرين أو أعمالهم . وصرت أحترم شخصي ورأيي إذ نشأتْ فيّ أنفة الشباب ، وجعلت المركز الذي يدور عليه سعيي في رفع قدري ، المحافظة على سيرتي بتجنّب الكلام البذيء ، أو معاشرة غير الأدباء ، وأمسكتُ عن المزاح إمساكاً تاماً ، وغلب الجدّ في أقوالي وأعمالي ، وبالغت في الابتعاد عن مظان الفحشاء حتى أصبحت لا أنظر الى امرأة ، ولا أمرّ في شارع يتحدث الناس بإحدى ساكناته . وتوافقتُ في هذه السيرة أنا وصديقي شاول ، واشتهر ذلك عنا بين البيروتيّين حتى ضربوا بنا الأمثال : يضربُها الوالدون لأولادهم ليقتدوا بنا . وكنت كلما سمعت إطراء هذه الخطة زدتُ تمسكاً بها ، ولا أخشى أن أصرّح بأني قضيت ثماني سنوات في ذلك الوسط الخطر كما وصفت وخرجت منه وأنا طاهر الذيل نقي الأزار ـ لا أنكر إني أوشكت السقوط غير مرة لكثرة التجارب فكنت أمسك نفسي في أول الأمر ، ثم صار ذلك نظراً فيّ .

وازددت رغبة في المطالعة على قدر ما يسمح لي وقتي . وتعشّقت أهلَ العلم ، فكنت اذا أتاني أحداً (كذا) عُرف بالعلم أو الصحافة

بالغت في إكرامه وحفظت كل كلمة يقولها ورويتُها عنه . وإذا حادثني أحدهم أو لاطفني حسبت ذلك تنازلاً كبيراً منه وهو عالم أو كاتب يخاطبُ أحد السوقة . فكان من جملة الذين يتردّدون على المطعم من أهل العلم الشيخ ابراهيم اليازجي ، وهو يلبس الشراويل العربي والطربوش المغربي ، ويتالق في إتقان لباسه وإصلاح شانه . وكانت للشيخ ابراهيم شهرة واسعة في العلم ، وله مريدون كثيرون . فكان ياتي أحياناً لتناول الغداء عندي ، ويغلب أن ياتي بعد الظهر قليلاً فاكون وحدي فلا أدري كيف أرضيه بتقديم أحسن ما عندي ، وهو مطبوع على اللطف والمسايرة ، فكنت اذا كلّمني أو مازحني حفظت قوله وردّدْتُه . ومما لا أزال أذكره أنه تغدّى مرة وخرج ، ونسي نظاراته على المائدة ، فتبعتُه ، وهما بيدي ، ودفعتُها إليه . فتبسّم وقال : « نسيت عينيَّ عندك ، ولكن لا خَوْفَ عليها ، لأني تركت قلبي عندكم طويلاً ولم يُصَبْ بسوء » . ونهض مرة عن المائدة ودفع اليّ قطعة من النقود كبيرة أظنها ريالاً على أن أعطيه ما يبقى له بعد أخذ ثمن الغداء فمددت يدي الى درج الصندوق البشتختة لأدفع إليه الباقي وأنا أقول « بسم الله الرحمن الرحيم ما لك يوم الدين » ، وأخرجت الدرج . فاوما بإصبعه الى الدراهم التي فيه وقال : « إياكِ نعبدُ وإياكِ نستعين » . فطربت لهذه النكتة ونقلتُها الى كثيرين ، وأنا طروب بأن الشيخ اليازجي يُلاطفني .

وكان من هؤلاء أيضاً المعلم عبد الله البستاني . فكثيراً ما كنت أستفيد من أقواله في الشعر واللغة . وعرضت عليه مرة أبياتاً نظمتها

فنشّطني مع علمي بأنها لا تنفع . وكثيراً ما كان يتلو عليّ من منظومه الجاهلي . وحفظت منه كثيراً ، واتفق في أثناء ذلك أن أهل دير القمر كانوا يناوئون رستم باشا ويكتبون عليـه ، فنشر المعلم عبد الله في لسان الحـال حُلماً عـرّض به بالباشا وأعماله ضمنـه كثيراً من أسماء الأبالسة والشياطين فكنت أحادثه به اذا اجتمعنا .

وكان منهم أيضاً المعلم ابراهيم الكفروني . و ...

وكنت قد اشتركت بالمقتطف لأطالعه ، وكنت أفتخر أني مشترك فيه وأحب أن يعرف الناس أني أطالعه . وأردتُ أن أتعرض للكتابة فيه . فكتبت مقالة بالغت في تنقيحها وتنميقها على قدر استطاعتي ، وأنا لا أعرف الإعراب ، وإنما كتبتها عن إحساس، لأن موضوعها انتقـاد الآباء الذين لا يعلّمون أولادهم وهم صغار، لأنهم اذا كبروا تفوت الفرصة لتعليمهم . وهي حالي يومئذٍ . أرسلت هذه الرسالة الى المقتطف باسم شاهين مكاريوس مديره ، وصبرت لصدور العـدد ، فصدر عـدد وآخر وآخر ، لم تظهر الرسالة ، فتعجبت لعدم صدورها لاعتقادي أنها مفيدة . فاتفق بعـد أشهر أن مـدير المقتطف جاءني مـع بعض أصدقائه للغداء ، وكنت قـد عرفته وعرفـني ، فسلّـم عليَّ فاكبرتُ تواضعه ولطفـه ، وتجرأتُ على الاستفهام منه عن مقالتي فسألتُـه : هل وصلته ؟ قال . إنها وصلت ، وعسى أن تكون الثانيـة أحسن منها . ففهمت أنها لم تنشر لضعفها . فاتخذت ذلـك درساً ورجّـعت ثقـتي في نفسي عشر سنين الى

الوراء ، ولم يخطر ببالي مطلقاً أن مدير الجريدة ظلمني أو أنه احتقرني أو قصد إساءتي لغرضٍ من الأغراض كما يفعل أكثر الذين يكتبون للجرائد ولا تنشر مقالاتهم ، بل اعتقدت أني لم أصر أهلاً لنشر مقالاتي بعد ، فلم أعد أكتب لجريدة من ذلك الحين إلاً بعد أن تعلمت الطبيعيات ودخلت مدرسة الطب وتفقهت ببعض فروعه ، ومع ذلك كانت كتابتي في سبيل المناظرة كما سيجيء .

وأخذت أفكر في وسيلة تساعدني على تلقي العلم . وكان والدي قد ألقى إليّ أهمّ أشغال محله وحساباته . فانا أطبخ ، وأنا أبيع ، وأقبض ، وأقيّد ، وأحاسب ، وأصبح المحل لا يستغني عني إلاّ أن يخرب ، لأن والدي لا يعرف الكتابة ، وتعوّد الاعتماد عليّ ، ولا يثق بسواي .

كنت أرى ذلك كله وأنا صابر أترقب الفرص . وكنت أزداد رغبة في العلم من معاشرة تلامذة المدرسة الكلية ، فإن تلامذة الطب كان فيهم جماعة كبيرة يتعلمون فيها ويعيشون خارجها ، وهؤلاء أكثرهم غرباء يأكلون في المطاعم . وكان صديقي سمعان الخوري قد دخل تلك المدرسة، وظلّ يتردّد للأكل عندنا . فدلّ بعض التلامذة علينا . وكانوا يستأنسون بي كثيراً ، فيجلسون بعد الأكل إذ نفرغ من إطعام الناس ، نتحادث ونتباحث ، فيرون مني ميلاً للاستفادة ، أو ربما دخلت في بحث طبيعي فيرون مني أقوالاً تدل على تلمسي في هذا العلم مما لم يعهدوا مثلهم (كذا) بين الطباخين أو غيرهم من صغار الصُنّاع أو الباعة في تلك الأثناء .

فتكاثر التلامذة الذين كانوا يتردّدون علينا وأنا أفرح بهم ، ليس لما أرجوه من الكسب من طعامهم بـل للذة من أحاديثهم ٠

وممن كان يتردد عليّ في تلك الأثناء خليل خير الله ، وأسعد رحّـال، وحسن نصار ، وباخس حكيم، وسمعان خوري وغيرهم ، وكانوا يدعونني الى الاحتفالات الـتي تجري في المدرسة عـــلى أثر الامتحانات وتفريـق الشهادات فاسمع الخطب ، وأشاهد التلامذة الناجحين ، فأشعر بانقباض نفسي لحرماني ذلك . وما شهـدت احتفـالاً إلاّ وخرجت منـه منقبض النفس . وقلّـما حضرتُ احتفالاً إلاّ وصديقي خليل شاول معي ، فإنه كان فيه مثل هذا الميـل للعلم ويشكو من تقييده بالساعاتية ، مثل شكواي من تقيدي باللوكندية . وكثيراً ما لحظ فيَّ الأصدقاء انقباضاً فسالوني ، وأعتذر لهم وأتجاهل ، إلاّ خليلاً فقد قلت له مرة : « ألا ياتي يوم أقف به موقف أولئك المتكلمين » ؟.

وكنت أحضر أيضاً احتفالات جمعيـة شمس الـبر ، وهي فرع من جمعية اتحـاد الشبان المسيحيين في انكلترا . وكانت جمعية آهـلة بالأدباء ، أكثر أعضائها من تلامذة المدرسة الكلية . تُلقى فيها الخطب والمباحثات. فكنت بالطبـع صديقاً لبعض أعضائها من تلامذة الكلية فنشّـطوني على الانتظام في هذه الجمعية ، فعددتُ تنشيطهم فضلاً كبيراً . فانتظمتُ في سلكها وعددت ذلك شرفاً عظيماً لأني لم أكن أرى لشيء في الدنيا ما للعلم من القيمة .

ومن آثار صداقـة شاول في مستقبـلي أنـه كان وسيـلة بتعرفي الى

الدكتور اسكنـدر البارودي ، وهو يومئذ تلميـــذ في مدرسة الطب . والبارودي فضله عليّ كبير،لأنه هو الذي أجلسني على أبواب العلم وقدمني لعالم الأدب . عرفته على يد شاول ، وكان صديقه . وكان اسكندر عضواً في جمعية شمس البر وله مقام رفيع لدى معارفه ، يحبونه ويعوّلون على رأيـه . وكان يُعرف يومئـذٍ بالمعلم اسكندر لأنه كان يعلّم في بعض المدارس قبل أن دخل الطب . فلما دخل الطب غلب عليه ذلك الاسم . وكان التلامـذة والأساتذة يحبونه ويجلّون قـدره ويتمثلون بنشاطـه وذكائه ـ فبالطبـع كان للمعلم اسكندر منزلة رفيعه في نفسي ، وأصبح هو المثال عندي لما ينبغي أن يكون عليه الشاب الأديب المجتهد .

وما زلت ازداد بذلك كله رغبة في طلب العلم حتى حدّثْتُ والدي بفكري . فقال : « افعل ما تراه موافقاً لك » . ولما علمتْ والدتي بعزمي على ذلك كادت تجنّ من الفرح ، وشجّـعتني كثيراً . ولكنني كنتُ لا أجد وسيلة للخروج من المطعم . وكان والدي يرى خروجي قد يؤدّي الى سدّ باب الرزق عـلى أهـلي . وفكّـرْتُ في مـا أرجوه من الثمرة اذا تعلّـمْتُ العلوم ، فوجدت أني لا أقدر أن أشتغل بغـــير التعليم ، فإذا خرجتُ من المدرسة الكلية أقدر أعلّـم براتب ٢٠٠ غرش أو ٣٠٠ وهي ذات قيمـة في ذلـك العهد ، لكنـني تراجعتُ وأخذتُ أفكر في وسيلة فُضلى . ورأيتُ أكثر معارفي من تلامذة الطب . فقلتُ : ولمـــاذا لا أدرس الطب ؟ فإذا قضيت مدة التعليم خرجتُ طبيباً ، وهي صناعةٌ أعيشُ بها أنا وأهلي . فلما خطر لي هذا الفكر فرحتُ كثيراً ، وأنا أجهل

ما ينبغي أن أعرفه قبل دخول الطب وغير ما يحول دون تركي الشغل. لكني وُفّقتُ في هذا الوجه الى مخرج حسن ، وذلك أن والدي اشترك تلك السنة مع صديقه حنا الزيلع من أبناء مهنته ، اشتركا في فتح أوتيل للمنامة بلصق مرسح سوريا ، وابتاعا الأسرّة اللازمة ، وهذا الشغل لا يحتاج الى تعب ولا معرفة القراءة ، وأشركاني مع ابن شريك والدي واسمه جرجي مثل اسمي . وكنا قد تعارفنا وتعاشرنا منذ الصغر ، ولكن والده كان يعتقد فيّ الرزانة والجد في العمل والمحافظة على سيرتي أكثر من ابنه ، فرغب في أن يلصقه بي لعله يصطلح . فاشتركنا في مطعم تحت اللوكندة التي فتحها والدانا . وهو قبو كبير فيه اليوم معمل حمص وفستق وقدامَة لعمر الحمصاني . ولهذا الشهم ذكر حسَن في قصّتي سيأتي .

فلما صرت مستقلاً في الشغل عن والدي واطمأن بالي أني اذا تركته لا خوف على رزقه أخذتُ أفكر في طريقة للشروع . وكنت قد كَثرُ أصدقائي من تلامذة الطب ، وكَثُرَ تردّدهم عليّ فازددت رغبة في الانتظام في سلكهم . مع ان شغلنا في مطعمنا الجديد كان كثير الربح جداً . ومما أذكره في هذا القبيل أن جيراننا كانوا لا يبيعون شيئاً قبل أن ننفّق نحن ، فكان لنا جار اسمه قيصر جاويش له مطعم بلصق مطعمنا ، فكان يأتي إليّ نحو العشاء وينظر في الحلل فإذا رأى فيها شيئاً قال : « بدنا الصَرْفه وننفّق ، متى نسترزق نحن؟».مع ذلك غلب على عقلي طلب العلم بطريق الطب .

وكنت قد طالعت شيئاً في كتاب سرّ النجاح الذي نقله الدكتور صروف الى العربية ، فهاج فيّ النشاط والهمة . قلت إني طالعت بعضه لأني لم أستطع الاتيان على آخره لفرط ما كان يؤثر فيّ من الحماس من مطالعة سير الرجال الذين نالوا العُلى بجدّهم واجتهادهم واعتمادهم على أنفسهم، وفيهم الحلاّق والسكّاف والخادمُ والصانع والخادمة ، فارتفعوا بجدهم وسهرهم الى مصاف الرجال العظام . فكنتُ اذا قرأت بضع صفحات هاجت شعائري ولم أعد أستطع الرقاد ولا الصبر ، ولما أجد نفسي مقيداً يغلب عليّ الأسف وينقبض نفسي فأترك الكتاب،ولا أزال الى الآن لم أتم قراءته .

فلما خطر لي أن آتي العلم عن طريق الطب لما فيه من المصلحة المادية فضلاً عن الأدبية قصصت فكري هذا على صديقي شاول ، فقال : نسأل صديقنا الباروي . فاجتمعنا به مرة في جمعية شمس البر وعرضتُ عليه فكرتي ، واذا كنت أريد أن أتعلّم الطب كم يلزم لي من الوقت والدراهم . ففكّر ونظر اليّ وهو يستغرب إقدامي على هذا الأمر الخطير وقال : إن طالب الطب ينبغي له أن يتعلم علوماً استعدادية يقضي لدرسها بضع سنوات غير اللغة الانكليزية والعربية . فسألتُه عن العلوم الاستعدادية ، فقال : هي الفلسفة الطبيعية ، والجبر ، والهندسة ، والحساب ، واللغة والنحو ، واللغة الانكليزية . هذه العلوم يقدّم بها الطالب امتحاناً يوم طلبه الدخول أول السنة ، فإذا جازها دخل الطب . فيبقى فيه أربع سنوات ، اذا جاز امتحاناتها كلها ، والامتحان

الشفهي ، أخذ شهادة المدرسة . فاعظمتُ عدد هذه العلوم وفيها مـــا لم أفهم منها إلاّ شذرات قليلة ، غير أن اندفاعي لطلب العلم كان يهون عليّ كل أمر عسير . فسألتُـه : اذا أراد مثـلي أن يـدرس العـلوم الاستعدادية كم يقتضي له من الوقت ؟ ــ فقـال : إنهـا تُدَرَّس في المدرسة الكلية في سنتين لمن يكون مجتهداً ، وان كثيرين بعد هاتين السنتين يقضون مدة الاجازة في الدرس وقد لا يجيزون الامتحان .

فلما قال لي ذلك كدت أنثني عن عزمي ، ولكنني كنتُ شديد الثقة بنفسي في ما يحتاج الى جلد واجتهاد . فقلت : ليس من سبيل الى تعلّم هذه العلوم في غير المدرسة باختصار ؟ قـــال : يمكن ، ولكن تحتاج الى كتب ومعروضات وعمليات ، ولا بـد من قضاء الوقت اللازم لدرسها ، وقد يستعين بعضهم بدرسها على أساتذة خارجيين في بيوتهم .

وكنـا يومئذٍ في أواخر المـدة المدرسية وستعطي المـدرسة الاجازة الصيفية فقلت : ألا تظنّ اذا اجتهدت (كذا) الإنسان يقدر أن يتعلم هذه العلوم في أثنـــاء فرصة الصيف ، ويقدم الامتحان في أول السنة المدرسية القادمـة ؟ فنظر إليّ وضحك استخفافاً بهـذا الرأي ، وقـال : « ذلك مستحيل ، لأني أعرفُ ثلاثة قضوا سنتين في درس هذه العلوم في الاستعدادية ولم يجدوا في أنفسهم كفـاءة لتقديم الامتحان فهم يدرسون أيضاً في هذه الفرصة تتميماً لما يُطلب منهم ، فكيف وأنت لم تدرس في مدرسة ولا لك علم ! »

قلتُ : دعنا نجرّب ذلك .

قال : جرّبه .

قلتُ : « بشرط أن يكون المعلم اسكندر استاذي في تلقي هـــذه العلوم » لأني كنت أوانس فيه ذكاءً وأسلوباً حسناً في التفهيم .

فقال : « أظنـني خارجاً من بيروت في هـذا الصيف ، وإذا بقيتُ أعطيك الدروس على قدر طاقتي » . قال ذلك من قبيل التنشيط وهو لا يعتقد أني أقدر عليه .

ثم سالتُـه عن النفقات اللازمة لسني المدرسة . فاخبرني أن الدفــع عشر ليرات عثمانية للتعليم دون الأكل وغير أثمان الكتب ، ومصاريف أخرى . ومـع علمي إني لا أملك من هـذه الدراهم غرشاً صمّمْـتُ عـلى العمل ، وأطلعتُ شريك والدي على فكري فاستغربه ...... [1] عن الإقرار بما كان في نيته ، فارسل دمعتين من عينيه وقـال لي : أنت تعـلم أنك بمنزلة ولدي ، بـل أنت أعزّ منه ، ولا يخفى عليك أني اجتهدت في عقد الشركة مع ابني لـما أعلمه من جدّك في أعمالك فالآن قـد ذهب كل أمل في إصلاح ولدي » .

فشقّ عليّ مـا شاهدته من ذلـك الشيخ ، فابديْـتُ له أسفي ، وأني

(١) كلمتان مطموستان .

خارج الى عمل شاق وفيه خطر ولكنني رأيتني غير قادر عن الرجوع ، وشاورت والدي فلم يراجعني ، ولا تسل عن فرح والدتي عندما ذهبت تلك الليلة وأخبرتها بهذا العزم ، ففرحت وشجعتني كثيراً وهي تعلم أني لا أملك شيئاً أدفعه للمدرسة ولا أن أطلب من والدي ، وأني كنت عازماً أن أنفق على نفسي في المدرسة من عمل أتعاطاه لا أعرف ما هو الى ذلك الحين . فقالت لي : « كيف هو الدفعُ في المرة الأولى؟ أي القسط الأول » فقلت لها : سبع ليرات عثمانية . قالت : عندي هذا المبلغ كنت أجمعه النحاسة والنحاستين ، أعطيك إيّاها . لا تهتم همّاً . اجتهد واتّكل على الله » . فكان لكلام والدتي تأثير كبير في نفسي .

وأخذتُ أفكرّ في ماذا أفعل للمستقبل . فكان من جملة ما خطر لي أن أفتح دكاناً للأكل بجوار المدرسة لعلمي أن كثيرين من التلامذة الخارجين يأكلون في بعض الدكاكين هناك ، فإذا أكلو عندي أربح منهم ما يكفي لنفقات المدرسة واتفقت مع أخي متري وهو صغير يومئذٍ أن يتولّى هو إدارة الدكان فتراضينا .

ولكن قبل كل شيء أخذت في درس العلوم الاستعدادية على المعلم اسكندر ، فلقيت في الأسبوع الأول والثاني صعوبة كادت تثني عزمي إذ أني لم أفهم مصطلحات تلك العلوم مطلقاً ، أما بعد الأسبوعين فصرتُ أرى ذلك سهلاً . فكنت آتي كل يوم لأخذ الدرس من بيتنا في الأشرفية الى سكنى البارودي في رأس بيروت في أيام الصيف وفي إبّان الحرّ بعد الظهر

الساعة ٣ . فلم أكن أبالي بالتعب ، ولم أكن أعرف التعب . فدرست درساً كثيراً في مدة قليلة،ولم يمض الشهر الأول وبعض الثاني حتى خلَصْنا من المقادر المطلوبة في العلوم التي ذكرناها،ومعلمي يزداد رغبة في تعليمي لمّا وجد عندي هذا الاجتهاد . فلما فرغنا من المطلوب زادني فوق ما يطلب، وأثنى مرة على اجتهادي وأنا لا أدري أنّ هذا يسمى اجتهاداً . فاخبرني أن أحد الثلاثة الذين ذكر لي أنهم درسوا سنتين والآن يدرس هذه العلوم نفسها على أساتذة في أثناء الفرصة ، وهو مع كل ذلك لم يبلغ الى نصف ما وصلت أنا إليه . فشكرتُ إطراءه . فاكد لي ذلك ، وسمّى لي التلميذ ، ودلّني على أساتذته ومنهم المعلم يعقوب صروف . وقال : إني احكيت عنك للمعلم صروف وأحبّ أن يراك . وكنت الى ذلك اليوم لم أشاهد المعلم يعقوب مطلقاً . فالتقيْنا مرّة أنا ومعلمي عند مراد البارودي في أجزاخانته ، وعرّفني بالمعلم يعقوب . فنظرتُ إليه نظر الاحترام لكثرة ما سمعت عن علمه وفضله . ولما قال لي المعلم يعقوب : « عافاك ، سمعتُ من المعلم اسكندر عن اجتهادك فسُرِرْت » وقع قوله في سمعي وقوع اللحن الموسيقي الرخيم ونشطني كثيراً .

لما فرغ الشهر الأول من التعليم تقدمت الى المعلم اسكندر أن يخبرني عن الأجرة لأدفعها إليه. فقال: الأجرة لما تُخْلُص المدة. فلما خلصت المدة وآن وقت الامتحان سالته عن الأجرة . فقال : لِمّا تْقَدّم الامتحان نبقى نشوف . فأدركت من هنا أنه لا ينوي أخذ الأجرة إلاّ اذا جزت الامتحان ودخلتُ الطبّ . فلما آن يوم الامتحان وقدمته وأعطاني

الأساتذة إجازة الدخول للمدرسة الطبية هرولتُ الى منزل المعلم اسكندر، وكان في انتظاري على النافذة ليراني قبل دخولي من الباب. فلما وقع نظره عليَّ سالني بالإشارة فاخبرته إني جزت الامتحان ونجحتُ، ففرح. ودخلتُ عليه فرأيت فَرَحهُ لا يقلّ عن فرحي. وعند ذلك سالته عن الأجرة فاخذ يماطلني وقال لي: «إن فرحي بنجاحك أكثر من فرحي بالدراهم». وأبى أن ياخذ أجرة. وطبعاً عزمتُ أن أعرض عليه ذلك وربما أعوضه بعدئذ، ولكني لا أنسى فضله ومحبته، فإنه كان خطوة كبرى في نجاحي. وأنا أعترف أن الفضل الأكبر في نجاحي في هذه الدروس الكثيرة في المدة القليلة الى أنه كان يُحْسِنُ التعبير جيداً. فكان اذا شرح لي قضيةً هندسيةً أو جبرية أو طبيعية ولم أفهمها غيّر أسلوب الشرح، وما زال حتى أفهمه.

وقد استفدت من عشرة المعلم اسكندر فائدة أخلاقية كانت لي عوناً كبيراً في مستقبل حياتي. استفدتُ منه المحافظة على الوقت. فإني كنت أراه شديد المحافظة عليه. ونظراً لمنزلته عندي فقد كان هو المثال لي. فاعجبني منه محافظته على الوقت. فقد كان ونحن ندرس الدرس اذا تركني أعمل عملية جبرية لنفسي تستغرق دقيقتين، التفت هو الى كتاب كان يترجمه واشتغل فيه، فربما ترجم سطرين أو ثلاثة أو صفحة بدلاً من أن يجلس بدون شغل بينما أتمم عملي. فاقتبست هذه الفضيلة منه وأفادتني كثيراً.

وشعرت بنفسي بعد أن تعلمت الطبيعيات والرياضيات وفهمت

انـــني انتقلت الى طور جديد ، أو كان غشاوة كشفت عن بصـيرتي . وتنبهت فيَّ قوة القياس والحكم . فبمد أن كنت أقلد الآخرين في حركاتي وأفكاري لا أقول قولاً أو أبدي رأياً إلاَّ اذا سمعتُ غـيري يفعـل ذلـك فاقلده فيـــه أصبحتُ ولي نظر في الأشياء . وبـدأتُ أحكـِّم نظري وأبدي رأياً من عند نفسي . والفضل في ذلك للعلوم الطبيعية والرياضية معاً ، فإنها تعوّد العقل على الحكم الصحيح المبني على الأسباب المترابطة .

ولحسن حظّـي أني في دور التقليد لم أنجح في تقليد رفاقي الأولين في الرذائل ، فقضيتُ بينهم دهراً وأنا حزين لعجزي عن تقليدهم . فلمـــا تعرفت الى شاول ورفاقه ، رأيتُـني قـادراً عـلى تقليدهم ، فقلّـدتُهم في الحسنات ونجحت . ولعل هذا هو أصل المثـل القائل : « ابعث ابنك الى السوق وأنظر من يعاشر » . وهو يخالف المثـــل الآخر « إن العشرة الرديئة تفسد الأخـلاق الحسنة » ، لأن الإنسان في اعتقادي يولد وفيـه أميال ، لا يرتاح في المعاشرة إلاَّ الى الذين يوافقون على أمياله . فالشباب الذي تفسده عشرة الأدباء يكون فيــه ميل الى الفساد من خلقـه ، وقـد يعاشر الصالحين فـلا يستفيد منهم ، فـإذا لقي الأشرار مـــال إليهم وعاشرهم . وإن كنت لا أنكر مـا للتربية من التأثـير في تقويم الأخلاق أو تحسينها ولكنني لا أعتقد أنها تغير جوهرها .

أساس نجاحي المحافظة على الوقت واللجاجة .

أصبحت في يوم الأربعاء في ... ... سنة ١٨٨١ وأنا تلميذ من تلامذة

الطب في المدرسة الكلية ، وأنا لا أصدق أني حصلت على هذه الأُمْنِيَـة . وفتحت دكاناً بقرب بابها لبيع المأكولات عهدتُ بها الى أخي متري . واستأجرتُ غرفةً أقيم فيها بقرب المدرسة . فاشْتَغَلَت الدكان بضعة أشهر ثم وجدتها لا تفي بالمطلوب فتركتها ، وتفرّغت للدرس . ولكني ما لبثت أن اهتممتُ بالقسط الثاني . فوفّقتُ الى شاب أعلّمه اللغة العربية وهو عبده ابن أخ اياس الغني المشهور في بيروت ، وكان مقيماً في منزله بقرب المدرسة ، واشتغلتُ أشغالاً أخرى استعنت بها على دفع القسط الثاني وثمن الكتب .

ومع فرحي بدخول المدرسة كنت أراني غريباً فيها كأني لبست ثوباً فُصّل لسواي ، ولا يزال في اعتقادي أني أقل ذكاءً ، وأضعف عن الظهور من سائر الرفاق ، لأن أكثرهم قضوا سنوات في دراسة العلم فيها وتعودوها ، ولهم والدون أو أولياء يحملون عنهم أعباء الدفع وسائر النفقات ، وأنا وحدي مضطر للشغل للقيام بتلك النفقات . وكان صفّي صف المبتدئين في الطب مؤلفاً من تسعة تلامذة ، كان نظري إليهم مثل نظري الى سائر التلامذة . وحملني خجلي من وثوبي تلك الوثبة الكبيرة من وراء الطبابيخ الى المدرسة الكلية على تجنب الاختلاط بهم،فعدّوا ذلك مني كبرياء . ولم يمض بضعة أشهر حتى تالفتهم وذهب بعض الخجل مني ، لأني رأيت منهم تقرباً اليّ ، ووجدت بالمزاولة إني لا أقل عنهم ذكاءً . ومع اشتغالي بمهام كثيرة التماساً للرزق رأيتني مثل أكثرهم درساً ، وصرتُ اذا أتيتُ المدرسة قبل الدخول الى صف الكيمياء أو النبات أو

التشريح أو اللغة اللاتينية ـ لأن هذه هي علوم السنة الأولى في الطب ـ رأيتهم يجتمعون حولي ويؤانسونني ويطلبون أن نراجع الدرس معاً ، وهم يصغون لما أتلوه عليهم مما فهمته من الدرس ، ويسالونني بعض ما أشكل عليهم فأفسّره . فانتبهت بالتوالي أني لا أختلف عنهم بقوى العقل ولا بغيرها ، فذهب بي خاطري سوء ظني بذكائي ، وصرت أرى إيناساً من الأساتذة والتلامذة ، وهم يعجبون لدخول الطب واستطاعتي المسير معهم في الدروس مع كثرة شواغلي . وظل المعلم اسكندر مدة وهو كلما لقيني في المدرسة يقول لي مازحاً : أنت في مدرسة الطب يا جورج ! كانه يستغرب حصول ذلك ، وأنا أفرح لذلك وأعدّه إطراءً وتقريظاً .

وكان صفي مؤلفاً من جرجي كفروني (توفي) ، والياس سابا (توفي)، وخليل برباري (توفي)، والأمير سليم شهاب (؟)،وأثناسيوس صيقلي ، وأسعد راشد ، وسليم زيدان و ... وصادقت تلامذة الصفوف الطبية العليا : سمعان الخوري ، ونقولا نمر ، وأسعد رحال من صف المنتهي ، والمعلم اسكندر بارودي ، وخليل خير الله ، وابراهيم مطر ، وابراهيم ثابت ، وابراهيم صليبي ، وانطون نوفل ، وباخوس حكيم ... من صف المدركين ، وحسن نصار ، وأمين فليحان ... من صف المحوّلين . وعرفت من تلامذة العلمية نعوم شقير ، واسكندر شاهين ، وجبرائيل حداد ، وغيرهم . وعرفت أيضاً أنطون حداد من معلمي المدرسة . وكنت أرى من رفاقي مؤانسة وتلطفاً بزيدان بتوالي الأسابيع والأشهر ، وخصوصاً في أواخر السنة المدرسية لما قربت الامتحانات وظهرت

مواهب التلامذة . وكنت أسمع منهم إطراءً أحسبه من قبيل التنشيط لعلمي اني لم أتفرغ للايغال في الدرس ، ولا أنا قاصد سبقاً وإنما كان همي أن أتناول العلم ولا أقصّـر عن أقراني . ثم لحظت أنهم ينظرون إليّ أرقى من ذلك، حتى لمّـح لي بعضهم مرة اني سأنال الامتيازات في تلك السنة. فلم أصدّق لعلمي أن بين أولاد صفّـي أذكياء ، وفيهم من درس أكثر علوم صف المبتدئين في المدرسة العلميـة قبـل دخوله الطب . وكان أظهرهم ذكاءً واجتهاداً جرجي كفروني . وكانت له علائق ودية مــــع أستاذ الكيمياء . وكان يعلّـم اللغة العربية ، وأستاذ الكيمياء المشار إليه واسمه الدكتور لويس كان مدققاً في تدريسه ، أتعبنا في أوائل السنة ثم ما لبثت أن فهمت أسلوبه في التدريس وتفهّـمت مبادىء الكيمياء حتىاستسهلتُ طريقته،ولذّت لي الكيمياء لذة عُظْـمى.فلما وصلت الى التحليل الكيمي في النصف الأخير من السنة رأيت منه إعجاباً عظيماً . فكنا اذا دخلنا غرفـة التحليـل ووقف كل منـــا الى رفّـه وعليـه الأنابيب والمصباح وزجاجات مواد الكشف دفـع الأستاذ الى كل منـا قليلاً من المادة الـتي يطلب الكشف عنها . فكنت أسبـــق الجميع الى كشفها . فيضحك لي ويعطيني مواد أخرى خصوصية اشتغل بالكشف عنها ريثما يفرغ رفاقي من الكشف عن المادة الأولى ، وألتـذ بذلك لذة عُظمى ، ولا أزال الى الآن أعتقد أن الكيمياء ألذ العلوم وأنفعها .

وكنت منذ أخذت في دراسة العلوم الاستعدادية كلما درست علمـاً أحسبه ألذّ سائر العلوم ، هكذا كان شأني بالطبيعيات والرياضيات . فلما

درست الكيمياء والنبات والتشريح رأيتها أحسن منها ، ثم غيّرت فكري بعد أن درست الفيسولوجيا والأقرباذين ، فرأيتها ألذ الا ، الكيمياء فما ، زلت أعتقد الى الآن أنها ألذها . لأن الإنسان يرى العالم به غير ما كان يراه من قبل .

أما التشريح فهو لذيذ جداً لما فيه من الاطلاع على ما يتالف منه الجسم البشري . ولم يكن لدراسته بدّ من اقتناء عظام الهيكل البشري للدرس عليه . وكانت العظام قليلة لصعوبة الحصول على الجثث ، لإنكار الناس تشريح جثث موتاهم . فكانت المدرسة تستجلب الجثث خلسة تدفع فيها الأثمان الكبيرة . وأما العظام فيتناقلها التلامذة بالشراء، ويندر أن يكون لأحدٍ ما هيكل تام باجزائه الصغيرة والكبيرة . فحدثتني نفسي أن أسعى في هيكل كامل . وبلغني يوماً عن رجل من أهل رأس بيروت أنه توفي ودُفن في مدفن على الرمل . فاتفقتُ مع أحد الرفاق أن نذهب لسرقته ، واصطحبنا رجلاً ومعوله للنبش وحمل الجثة . ذهبنا في ثالث أو رابع يوم من الوفاة ونحن نحسب الجثة موضوعة في صندوق فيسهل نقلها كما هي ، فذهبنا بعد نصف الليل كاللصوص الخائفين، فنبشنا عدة قبور لأننا أخطأنا مكان القبر المطلوب ، مع أننا ذهبنا في النهار عيّنا مكانه ، وأخيراً وجدناهم لا يدفنون في الصناديق . فحملنا ما استطعنا حمله من العظام لأن الفجر أدركنا ورجعنا خائفين.ولم يعلم بهذا العمل أحد من أهل المدرسة غير رفيقي . ورأى الناس في الصباح التالي القبور مفتحة فاتهموا تلامذة الكلية ولم يعلموا من الفاعل .

وبما لا أنساه من مشاهد السنة الأولى أنهم أتونا ذات يوم بجثة غلام في التاسعة من عمره دفن في مساء الأمس بمدفن مار متري في الأشرفية . ولم أكن أعلم أنه من هناك لأن أكثر أهل ذلك الحي من أهلنا ومعارفنا ، لأن بيتنا كان هناك . فلما صارت الجثة في المدرسة صعدوا بها الى التكنة بين سقف الطبيّة والقرميد خلسة،واستقدمونا لحضور تقسيمها. فصعدت مع الصاعدين،وهي أول مرة شهدت ذلك.ولا أنسى ساعة فتحوا التابوت وقد تغطت الجثة بالأزهار وفاحت رائحة العنبر لكثرة أوراقه وأزهاره بينها ووقع نظري على جثة ذلك الغلام،فأثّر منظره في نفسي، فما زلت الى اليوم كلما شممت رائحة ورق العنبر أو زهره تصورت تلك الجثة أمامي .

فاخذ الدكتور ورتبات أستاذ التشريح يقسم الجثة ويفرقها على التلامذة من كل الصفوف. وبعد يومين آن ذهابي الى البيت لمشاهدة أهلي ، لأني كنت أذهب كل سبت الى بيتنا أقضيه مع يوم الأحد هناك . وحال وصولي وإلقاء التحية بادرتني والدتي قائلة : مسكين ابن فلان، توفي . وقد ُسرقت جثته . ويقال أن المدرسة الكلية سرقته . فتجاهلت ولكنني تأسفت لأن الغلام من بعض الأقارب .

أما اللغة اللاتينية فاستاذها المستر بورتر ، ولكنه كان مشغولاً عنها في ذلك العام فتولى تدريسها المعلم فارس نمر . وكنت قد شاهدته مرة قبل دخولي المدرسة في بيته ، عرّفني إليه بعض أصدقائي . ولما دخلت

المدرسة لم يكن لي معه صلة غير ساعة الدرس . واللغة اللاتينية يدرسها تلامذة الطب مكرهين لأنهم لا يجدون في درسها لذة ، ولا يقدّرون لها قيمة تستحق التعب . ووجدت هوية كبرى في درسها لأول وهلة لأني لم أكن متمكناً من قواعد اللغة العربية والانكليزية لدرجة تساعد على تفهّم قواعد اللاتينية . لأن التمكّن من قواعد لغة يساعد على تفهم غيرها . ولكن لم يمض بضعة أشهر حتى صرت ألتذ بدرسها وأحببتها وآنست في المعلم ارتياحاً الى تقدمي فيها .

أما النبات فكان أستاذنا فيه الدكتور بوسط وهو من علماء هذا الفن. ووجدت في درس النبات لذة،وخصوصاً في فسيولوجيته وتشريحه لما فيه من النظام والحكمة . وكان الدكتور بوسط مع مهارته ونشاطه وعلمه حاد المزاج سريع الغضب ، فيه ميل الى الانتقام . ولذلك فقد كان التلامذة يسيئون الظن به ، وهو يسيء الظن بهم . ويزيد ظنه سوءاً أنه ثقيل السمع،فإن رأى شفتي أحد التلامذة تتحرك ولم يسمع ما يقول ظنه يتحدث عنه بالسوء ، ولذلك لم يكن حكمه على معرفة تلامذته في النبات صحيحاً دائماً . أما أنا فكنت أتعلم تلذذاً بالعلم لا طوعاً لإشارة والدي أو وليّ أمري، فكنت أتفهّم ما أدرسه جيداً ، ومن كان ذلك شأنه لا خوف من تقصيره .

فلما اقترب وقت الامتحانات السنوية أخذ التلامذة يتأهبون لتقديمها، وهي عندهم مثل أيام الدينونة ، ولا سيما عند الذين لم يتعودوها . وكان

أكثر رفاقي قد ألفوها في المدرسة العلمية ، وأما أنا فهي أول مرة تقدمت فيها للامتحان في مدرسة كبرى . وكنت الاحظ من وجوه بعض الأصدقاء من التلامذة شيئاً يكتمونه عني ، وعرفت بعد ذلك أنهم كانوا يتناقشون في غيابي عمن سينال شهادات الامتياز من المبتدئين ، وأنهم انقسموا شطرين : شطر يظنني سانالها ، وشطر يقول عن الكفروني . ودخل في المناقشة تلامذة العلمية ، وكانوا من حزبي إقتداءً بالمعلم أنطون حداد ، لأن المذكور كان يتولى تقييد علامات التلامذة . وعموماً يستخرج معدلها فهو أعلم الجميع بالراجح ، جرى ذلك كله وأنا لم أشعر ، على أني تذكرت بعدئذ إني كنت أؤنس من المعلم أنطون وبعض الرفاق شيئاً يقولونه عني .

قدمنا الامتحان الخطي كل علم على حدة ، إلا التشريح . فإنهم يراجعوانه في السنة التالية ، أي يدرسونه سنتين ويقدمون الامتحان فيه في سنة المحوّلين . امتحنوننا أولاً بالكيمياء . وكيفية الامتحان عندهم أن يجلس التلامذة على مقاعد وأمامهم طاولات في قاعة كبيرة ، ويجلس الأستاذ على دكة ويرى الجميع منها . ويدخل التلاميذ وليس معهم إلا أوراق بيضاء وأقلام ويجلسون . فيكتب الأستاذ الأسئلة المطلوبة على لوح كبير ، في صدر القاعة ، ويطلب من التلامذة أن يكتبوا كل سؤال على حدة في دفاترهم ويدوّنوا جوابه تحته . والغالب أن يجعلوا الأسئلة قسمين : قسماً لا بد من الجواب عليه ، وقسماً يخيّر التلاميذ في الجواب عليه أو عدم الجواب . فكنت أجاوب على كل الأسئلة . ويغلب أن

أفرغ من العمل قبل الجميع لأني سريع الكتابة . ويجب أن أعترف هنا بشطط ارتكبته في أثناء هذه الامتحانات حملني عليه حبي لبعض الرفاق الذي كنت أخاف عليهم التقصير في الكيمياء أو النبات فكنت . أكتب إليهم الأجوبة وأرميها من تحت المقاعد ، وقد أفادهم ذلك على ما أظن ، وخصوصاً في النبات لأن الدكتور زعم أننا أخطأنا فهم مراده من بعض الأسئلة فأجبنا غير الجواب المطلوب. والغريب أننا كلنا فهمنا فهماً واحداً من مراده . وأصرّ هو أنه يريد غير ذلك ، وحاسبنا على ذلك القسم فقلّ معدل العلامات . فمن كان ضعيفاً قصّر . فبمثل هذه المعاملة كان التلامذة واجدين على الدكتور بوسط .

أما الكيمياء فلم يقصّر بها أحد على ما أظن، لأن الدكتور لويس مع دقته في التدريس لم يكن يعوّل على الألفاظ ، فكان يعرف مقدرة كل تلميذ وان اختلف الظاهر لديه .

أما اللاتيني فلم يكن من سبيل الى إعانة الرفاق في الامتحان لأن الأستاذ فارس نمر كان ساهراً ، ولا تخفاه خافية من أساليب التلاميذ في مثل ذلك . فأجلسنا في غرفة ولكل منا فيها طاولة وكرسي على دائر الغرفة ، ووقف هو في الوسط وفي مكان يرى فيه كل تلميذ . وكتب الأسئلة على اللوح ، فأجبنا عليها كلها . وفرغتُ من الكتابة والوقت لم يفرغ . فخجلتُ من النهوض باكراً ودفعت الدفتر الى الأستاذ فارس وخرجت مهرولاً الى الكتاب لأتحقق لفظة ظننت نفسي كتبتُها خطأً ،

وغيّرتُها . فوجدتُ أني كنتُ كتبتها صواباً ، ثم أبدلتها خطأً ، فأسفت ، لأنها الغلطة الوحيدة في ذلك الامتحان ، لكني شكرت الله على أنها واحدة .

وجعلت أخطر في دار المدرسة أنتظر رفاقي ، وقلبي واجس على بعضهم ، لأني أعرف ضعفهم . وبعد قليل نزلوا ونزل المعلم فارس ، ولم يكن يجري بيني وبينه حديث خارج الصف ، فوجدته هذه المرة تحول نحوي ومدّ يده وصافحني وهزّ يدي بحرارة ، وقال : اهنئك يا زيدان ، برافو ، فإن امتحانك بديع . فخجلت لهذا الإطراء فغيّرت ، الحديث وقلت : أرجو أن لا يكون أحد من الرفاق مقّصراً . فلم يجب على هذا وسار . وعرفت بعد ذلك ، أن علاماتي باللاتينية كانت عشرةً إلاّ عُشراً. وهذا نادر حصوله خصوصاً في اللاتينية .

ولما جاء ميعاد تفريق الشهادات في آخر أيام السنة المدرسية ، وهم يحتفلون في تفريقها احتفالاً يحضره الوجهاء والأدباء بدعوات خصوصية، وتتلى فيه الخطب ، ويجلس عمدة المدرسة بملابسهم الرسمية على دكة في صدر القاعة الكبيرة (الكنيسة) . وبعد الفراغ من الخطب يقف الرئيس وينادي التلامذة الذين استحقوا شهادة الطب أو البكالوريوس واحداً واحداً ويسلمها إليهم ، والناس يصفقون لهم ، ثم يقف الأساتذة لاعطاء شهادة الامتياز لمن أحرز قصب السبق في الفنون التي يدرسونها . وكنت في مؤخر القاعة ، فلما بدأ توزيع شهادات الامتياز رأيت تلامذة العلمية

وبعض الرفاق يوّلون وجوههم نحوي ويضحكون،الى أنوقف الدكتور لويس وبيده شهادة ونادى باسمي ، لأني نلت شهادة الامتياز بالكيمياء التحليلية . فلم أر بداً من التقدم لتناولها ، فمشيتُ وقد غلبني الخجل ، والناس يصفقون ، وخصوصاً التلامذة كأنهم فرحون بفوزهم . فوصلت الى الدكة وتناولتُ الشهادة ورجعتُ والتصفيق متواصل ، وأنا أنظر الى الأرض خجلاً . فسمعتُ بعضهم يقول : لا ترجع ، انتظر الشهادة الأخرى . فلم أبال . فما وصلت الى مكاني حتى سمعت الأستاذ بورتر ينادي باسمي وقد نلت الامتياز باللغة اللاتينية . فرجعتُ والتصفيق لا يزال متواصلاً فتناولتها . ورجعت وأنا أكاد أذوبُ من الخجل ولكن قلبي كان يرقص فرحاً .

وقد نال الامتياز بالكيمياء الوصفية رفيقي جرجي كفروني ، وهو يستحق ، لأنه كان ذكياً ومجتهداً . أما النبات فلم ينل امتيازه أحد ، لأن الغلطة التي زعمها الدكتور بوسط أنقصت العلامات على الإجمال ، ولا ينال الامتياز عندهم إلاّ مَنْ زادت علاماته على ثمانية من عشرة .

ولما أرفضّت الجلسة باح التلامذة لي بما كانوا يتناقشون فيه بغيابي ، وكنت أرى السرور بادياً على وجوههم لأجلي ، ولا أنسى اللّذة التي ذقتها في تلك الجلسة ، فقد زادتني نشاطاً وصبراً على الدرس .

فلما فتحت المدرسة في السنة التالية انتقلتُ الى صف المحوّلين . وعلوم التشريح والفيسولوجيا يعلمها الدكتور ورتبات والاقراباذين

الدكتور بوسط ، والترابيوتيا أو خصائص العقاقير وهو علم جديد أدخلوه تلك السنة وعهدوا بتدريسه الى الدكتور ولـيم ... كان أستاذنا الدكتور فانديك ووجدت في علم الفيسولوجيا لذة خاصة لأنه يرشد الإنسان الى وظائف أعضائه الحيوية كالهضم والتنفس والدورة وغيرها . وإنْ كان العلم المشار إليه لا يزال ناقصاً . وكان لصفنا امتياز على سائر الصفوف التي سبقته في تلقي علم الترابيوتيا ، وهو جميل موضوعه درس تأثير العقاقير على وظائف الأعضاء في حال الصحة . وكان الدكتور وليم ألف كتاباً في هذا الموضوع ، ورتبه ترتيباً حسناً ، وأعجبتنا طريقته في التدريس ، فقد كان يوضح لنا أفكاره ويصورها لنا تصويراً مما يدل على تفهمه إياها جيداً . ولم تكن أفكار الدكتور ورتبات في الفيسولوجيا مثل هذا الوضوح .

قضينا من هذه السنة بضعة أشهر ،ثم حدث في المدرسة حادثها المشهور الذي اتحد فيه تلامذة الطب في المطالبة بحقوق لهم ، وهي أول حادث من هذا النوع في الشرق .

وترتب على ذلك الحادث خروج معظم التلامذة وتفرقهم في العالم ، وتغيّر مستقبل بعضهم ، وانتقال كثيرين الى مصر وغيرها .

المدرسة الكلية

هي أقسام ، علمي وطبي ولاهوتي وغيره . وقد أسسها الأميركان في بيروت [١] ورئيسها الدكتور بليس الكبير . وأشهر أطبائها وأقرب صلة بالناس وأكثرهم ظهوراً في المبرات وأشدّهم مودة لأهل البلاد الدكتور كرنيلوس فانديك ، فهو قسيس وطبيب وأستاذ . كان يعظ ويطبّب ويعلّم ويتناول على ذلك أجرة مثل غيره من الأساتذة . لكنه كان كريم الخلق واسع الصدر سخي النفس كثير الإحسان مع اللطف والايناس . فاشتهر في سوريا شهرة واسعة وأحبه الناس . وكان يعلم في الكلية الباثولوجيا والكيمياء . ثم أخذ الكيمياء عنه الدكتور لويس . وكان التلامذة يتعشقون فانديك ويتغنون بمناقبه وحسناته ولطفه. وكان العامة يعتقدون أن فانديك هو مؤسس المدرسة الكلية حتى سماها بعضهم مدرسة فانديك . وهو لم يقل ذلك ولكن شهرته غلبت شهرة رفقائه اقراراً بأياديه البيضاء .

---

(١) كتب المؤلف هنا : (يراجع ترجمة الدكتور فانديك) .

والظاهر أن هـذا التميز أنشأ تحاسداً وبعث عـلى تغـير القلوب . وزاد أسباب التفريق أن الدكتور فانديك كان حر الفكر والقول لا يبالي أن يصرح بما يتحاشى رفاقه وغيرهم من جماعـة القسس أن يصرحوا به ، مبالغةً في التظاهر بالتقوى . وكان الدكتور فانديك تقياً ولكن عن تعقل وتفكـير ، لا يكترث بالتفاصيل والجزئيات الـتي يتمسك بهـــا بعض المتهوسين بالدين ، وليست هي من الدين في شيء . أمـا هو فكان شديـد التمسك بجوهريات الدين المسيحي لا يبالي باطرافه وقشوره اذا خالفت قواعد العـلم . فـإذا ظهر مذهب علمي يخالف بظواهره تلك القشور لا يبالي أن يحترمه وينظر فيه نظر العـــالم ، كمذهب الارتقاء وغيره من مذاهب الفلاسفة الطبيعيين . ولعـل هنـاك أسباباً أخرى زادت التباعد بين الدكتور وبعض رفاقه عمدة المدرسة ، ولا سيا الدكتور بوسط . وفي السنة التي دخلت فيها المدرسة (١٨٨١) كانت العمدة مؤلفة من فانديك وبوسط،وورتبات،ولويس،وبورتر،وبركستك، ورئيسها المستر بليس . وكان لويس شاباً حر الفكر والتصرف ، لا يرى التظاهر بالدينيات لازماً مع أنه من شروط تلك المدرسة . فكان لا يرى باساً في تناول الخمر على المائدة مع الأكل ، ولا أن يغيب عن الصلاة مثلاً أحياناً . فكان من حيث الحرية أقرب الى الدكتور فانديك مع تفاوتهما في السن . فكانت العمدة اذا انتقدت عملاً من أعمال لويس نصره فانديك .

واتفق ظهور مذهب داروين،فالقى فيه الدكتور لويس خطاباً ألقاه عـلى التلامذة ، لم يتعرض فيـه للدين في شيء ، لكن ذلـك الرأي كان لا

يزال حديثاً ورجال الدين يعدّونه مخالفاً لقواعد النصرانية . فحسبوا هذا الخطاب نقطة سوداء للدكتور لويس واشتكوه الى عمدة المدرسة الكبرى في أميركا ، فألجأته الى الاستعفاء لأنها شديدة الحرص على المبدأ الديني الذي أنشأوا تلك المدرسة من أجله .

صدر قبول استعفاء الدكتور لويس في أثناء الفصل الأول من السنة التي نحن في صددها ، وكان التلاميذ يحبون لويس ويعتبرونه ، وخصوصاً لأن فانديك يحبه ويقربه . وكانوا يكرهون بوسط أو على الأقل لا يحبونه لحدة مزاجه وتطاوله على بعضهم بالكلام والتهديد للأسباب التي قدمناها. فانحاز تلامذة الطب لجانب فانديك ولويس ، وأجمعوا على اقامة الحجة ومطالبة المدرسة بحقوق لهم عليها ، ومن جملتها أن يكون الدكتور لويس أستاذ الكيمياء فيها . وكان في جملة المحرّكين لهذه المسائل المعلم اسكندر البارودي والمرحوم سليم جريديني ، وكانوا يفعلون ذلك انتصاراً للويس وعملا بما يرضي الدكتور فانديك . وقد أجمعت كلمتهم على الاحتجاج وكنت في جملة المحتجين ، وربما كنت أكثرهم تمسكاً في ذلك مجاراة للبارودي لأني أعتقد فيه السداد كما يعتقد كل تلميذ في معلمه . وكان من أكثر التلامذة عملاً وسعياً ، وكثير التردد على بيت الدكتور فانديك وبيت صروف ونمر . وكان هذان طبعاً من حزب التلامذة لأنهم يجلون قدر الدكتور فانديك كثيراً وكان نصيراً لهم في كل مشروع أدبي ولا سيما « المقتطف » . فإنه هو الذي حثّهم على انشائه ولم يذخر وسعاً في تدريبهم ومساعدتهم أدبياً ، فقد كان قاموساً حياً يستعينون به في ما

يعرض لهم من الأسئلة أو يرون كتابتـــه من المواضيع ، فيرشدهم الى أماكنهم (كذا) ، فضلاً عن فضل التعليم وغيره . فكانوا يحترمون رأيه وينصرون شعوره [1]،فكانت قلوبهم في هذه الحركة مع التلامذة ، ولكن مصلحتهم كانت تقضي عليهم بالحياد لأنهم يعلّمون في المدرسة، وان كانوا في باطن الأمر ناقمين علـى العمدة لأنها لم تقدرهم قدرهم في الترقيات ، ولا تؤدّيهم ما يستحقونه من الراتب . ولصاحبي « المقتطف » احترام ومحبة في قلوب التلامذة ولا سيما الشبان من طلبة الطب ، فكان ذلـك مساعداً على اجتماع كلمة تلامذة الطب على المطالبة . وشاركهم في ذلك لأول وهلة كبار تلامذة العلم ، نخص منهم بالذكر جبرائيل حداد ونعوم شقير وأسعد كلارجي ، كانوا يحضرون جلسات البحث الأولى مع الطبية ، ثم تنحوا باشارة طلبة الطب لئلا يفشلوا ولا مصلحة لهم في القيام .

ان الحركة التي ظهر بها تلامذة المدرسة الكلية مما يحق تدوينه لأنـه (كذا) بدء نهضة جديدة بين تلامذة المدارس في الشرق لم يسبق لهـــا مثيل . والفضل فيهـا راجع الى تربية المدرسة نفسها ، فإنهـا كانت تربي تلامذتها على حرية الفكر وحرية القول ، وعوّدتهم على الحرية الشخصية والمساواة في الحقوق ، حتى كان التلميذ يشكو أستاذه الى عمدتها إنْ توّهم أنه خرج في معاملته عن الحدود المفروضة له . والعمدة تنصف صاحب الحق ولو كان أصغر التلامذة ـ هذا الروح الذي تمتاز به هذه المدرسة من

---

(١) بعدها في الأصل : ولكنهم ، وبعدها كلمة شطبت .

مدارس الشرق كان لها (كذا) تاثير كبير في ترقية نفوس السوريين في هذه النهضة ، وهي التي سوغت لتلامذة الطب في هذا العام التظلم للعمدة لاعتقادهم بصواب عملهم .

احتجاج تلامذة الطب :

علم تلامذة الطب أن الدكتور لويس استعفى من أوائل ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، وكان بعضهم عالماً بالمناقشة بينه وبين سائر العمدة ، فأشاع ذلك بين سائر التلامذة ، فاجمعوا على الاحتجاج فانقطعوا عن المدرسة يوم الاثنين في ٤ ديسمبر المذكور ، وهم ٤٥ شاباً ، كل تلامذة الطب . واجتمعو اجتماعهم الأول في إحدى قاعات المستشفى البروسياني ، وكلهم من أهل الدراية وقد تعوّدوا الاجتماع في المدرسة نفسها أو في « جمعية شمس البر » وبعضهم في الماسون . فساعدهم ذلك على التكاتف والانتظام في أعمالهم ومناقشاتهم حتى في جلستهم الأولى المشار اليها . فانهم بدأوا بتنظيم مجتمعهم بشكل جمعية انتخبوا لها رئيساً مؤقتاً وخطيباً وكاتباً وأميناً على هذه الصورة :

جرجي زيدان		رئيس
اسكندر بارودي		كاتب
خليل سعادة		خطيب
فيليب معلوف		خطيب
جبر حداد	(من العامية)	خطيب

أسعد كلارجي (من العلمية)	خطيب
جرجي باز	أمين صندوق
فائز شهاب	معاون أمين [1]
انطون ميلان	كاتب ثاني
ابراهيم صليبي	مبلّغ الغائبين من التلامذة

فعلوا ذلك حتى تكون جلساتهم منظمة ومباحثاتهم مدونة . ولم أولَّ [2] رئاسة تلك الجلسة لفضل فيّ ، فقد كنت من صغار التلامذة مقاماً ، ولكنهم جعلوا الرئاسة اسمية لحفظ نظام الجلسة حتى لا يتكلم أحد إلا في دوره أو بعد الاستئذان . واختاروني لعدم وجود المنافسة بيني وبين أحد من التلامذة ، ولا هناك ما يدعو الى النفور أو التحاسد ، فاني كنت بعيداً عن المشاكل كثير الميل [الى] المسالمة . لا أخاصم أحداً ولو أساء إلي ، ولا يزال ذلك طبعي الى اليوم . على أنهم كانوا ينتخبون لكل جلسة رئيساً خاصاً ، ولا أهمية لهذه الرئاسة وإنما ذكرتها لتقرير الحقيقة .

ودار البحث في هذه الجلسة أولاً على الاتحاد ، وفي جلسة أخرى وضعوا صيغة أقسم عليها التلامذة واحداً واحداً هذه صورتها :

« أقسم بالله وبشرفي أن أحافظ على العهود التي قررناها في هذه الجلسة وعلى الثبات الى النهاية مع الجمهور » .

(١) « امين » أسقطها نبيه فارس.
(٢) في الأصل : يولى .

وأقسم كل واحد بمفرده ، ودوّن اسمه بيده تحت صورة هذا القسم في دفتر وقائع الجلسة الذي كان بيد كاتب السر يومئذ ، وهو عندي الآن .

ودار البحث في الجلسة الأولى على ما ينبغي عمله ، ومدار الحديث على الاحتجاج على خروج الدكتور لويس من المدرسة قبل نهاية السنة ، والاستفهام عمن ينوب عنه ، لأن ذلك يهمنا من حيث ثقتنا بعمله ، ودخلنا المدرسة وهو استاذ الكيمياء فيها . واغتنموا هذه الفرصة تقوية للاحتجاج فطلبوا أموراً كانوا صابرين عليها ، وهي :

أولاً : ان المدرسة الكلية لا تكفي شهادتها لتعاطي صناعة الطب في المملكة العثمانية ، ولا بدّ للمتخرج منها من الذهاب الى الآستانة وتقديم الامتحان بين يدي لجنة من أساتذة المكتب الطبي السلطاني . وكان الامتحان صعباً لأنه تفصيلي ، يُسأل فيه الطالب عن كل علم على حدة في جلسات متوالية . وكان هذا الامتحان يجري الى تلك السنة في اللغة العربية ، وهي اللغة التي كان يدرس بها التلامذة في الكلية . وحتى التلامذة كانوا يقاسون عذاباً شديداً وكثيراً ما يفشلوا ويتاخروا في الامتحان فيراجعوا أو يتقاعدوا عن معاطاة هذه المهنة . فازداد الأمر تعقيداً بإعلام جاء المدرسة الكلية في تلك السنة أن امتحان تلامذة الطب في الاستانة لا يقبل بالعربية بل يكون في اللغة التركية أو الفرنساوية [1] . فضجّ التلامذة عند سماع هذا الخبر ، وأخذوا يتحدثون في مخاطبة عمدة المدرسة بشأنه ، فاغتنموا تلك الفرصة لطلبه .

---

(١) أثبتها نبيه فارس « الفرنسية » .

ثانياً : كانت لجنة الأستانة تمتحن تلامذة الكلية بعلوم لا تعلّمهم إياها هذه المدرسة : كعلم الحيوان والتشريح المرضي الهيستولوجيا وغيرهما .

ثالثاً . ان الشهادة التي كانت المدرسة الكلية تعطيها ، وقد رأيت انها لا تغنيهم عن امتحان الآستانة ولا تفيدهم شيئاً غير الاقرار بأن حاملها لازم الدروس أربع سنوات وقدّم الامتحان اللازم. ولكن هذا الامتحان كان شاقاً كثيراً ، فقد كان كل أستاذ يمتحن تلامذة صفه بالعلم الذي تعلموه على يده امتحاناً شفهياً بمدة قصيرة ، وكثيراً ما ساقت البغتة بعضهم الى الارتباك فينسى الجواب ويسقط بالامتحان . وقد اتفق ذلك لكثيرين من الأذكياء ، منهم نقولا نمر وأسعد رحال على أيامنا .

وقد عينوا لجنة لكتابة هذه المطاليب مع الاحتجاج على خروج الدكتور لويس ، ولكنهم كتبوا كتاباً مختصراً يعتذرون فيه للعمدة عما أوجب توقفهم عن الدروس بغتة وهذه صورته :

« اننا بالنسبة الى الظروف الحاضرة لسنا قادرين على الدرس بالوقت الحاضر ولا حضور الصفوف ، وعندنا أمور أخرى نقدمها لكم بوقت آخر والله يحفظكم » .

وأرسلوا هذا الكتاب مع وفد ، وأوصوه أن لا يخاطب أحداً بدون إذن الجمعية .

وفي ٦ ديسمبر ، أي في اليوم التالي ، علقت العمدة اعلاناً في مدرسة

الطب هـذه صورته ـ وكانوا قـد علقوا واحداً قبـله يطلبون رجوع التلامذة للصفوف :

« قـد شاهد أساتذة المدرسة بكل أسف إصرار تلامـذة الطب عـلى غيابهم عن دروسهم وتعطيلهم عنها ، فلم يبق لهم إلا أن ننصحهم نصحاً أخيراً،واذا لم ينتصحوا هذه المرة وقعوا تحت طائلة القصاص المدرسي».

أما نحن فاشتغلنا في كتابة الاحتجاج وسائر المطاليب بلجنة منا هي: خليل سعادة ، واليـاس سابا[١] ، واليـاس زهار ، واسكندر بارودي ، فكتبوا احتجاجاً وعريضة هذه صورتاهما :

صورة العريضة بالمسائل المطلوبة من عمدة المدرسة

« أتينا نطلب الطب في مدرستكم على أساتيذ معلومين تحت ظروف معلومة حسب قوانين مقررة . فنصرف الدرهم ونكابد المشقة لتتميم ما يطلب منا محافظين على واجباتنا . فحدث انه في هذه الأثناء نقض بعض العهود التي دخلنا عليها ، ومن حيث أن الروابط بيننا وبينكم هي تلك العهود لا غير ، وقد نقض بعضها ، فاصبحنا خائفـين أن تنقض كلهـا . فاصبحنا في اضطراب عظيم فتوقفنا عن ملازمة الدروس لأننا :

(١) دخلنا على شرط أن يقبل فحصنا في الآستانة في اللغـة الـــتي

---

(١) الأصل خليل ،صححها نبيه فارس من سجلات الجامعة،وسيأتي اسمه فيا بعد « الياس ».

درسنا بها ، وقد اخبرتمونا أن ذلك منقوض ولا يمكننا الفحص بهذه اللغة بعد . فامسينا لا نستفيد شيئاً من شهادتكم أمام الآستانة .

(٢) دخلنا على شرط أن يكون أساتذتنا الدكتور فانديك والدكتور ورتبات والدكتور بوسط والدكتور لويس والدكتور وليم فانديك والدكتور بروكستك ، وقد نقض هذا الشرط أيضاً نقضاً على وجه غريب لم يسمع له مثيل بفصل أحدكم عن المدرسة حال كوننا مفتقرين غاية الافتقار إليه فنحن نخشى على الباقين .

(٣) بما أن شهادتكم التي نأخذها بمالنا وتعبنا لا يزيد اعتبارها عند حكومتنا على شهادات الملازمة التي ننالها عند الفحص السنوي ، فما الحاجة إذ ذاك الى توقفها على الفحص النهائي الشاق غير المطاق .

فمن جهة فحصنا نطلب بالاختصار إما تثبيت شهادتكم أمام حكومتنا أو تسهيل فحصنا في العربية هناك . ولا تكفينا الوعود والآمال المستقبلة لأن الاصطبار في المدة الماضية علّمنا ما يوجب هذا الطلب ، ونحن لا نعرف أحداً غيركم نطالبه بهذا الشان .

ومن جهة أساتذتنا نحن لم نجيء للدرس إلا على أساتيذ شهيرين ، وليست المدرسة عندنا غير أولئك الأساتيذ . وقد علمنا بفصل أستاذنا الفاضل الدكتور لويس فصلاً فجائياً في بحر السنة . ولم تنبهونا الى ما هو جار قبل دخولنا المدرسة . فقد دخلنا المدرسة وتممنا ما علينا من الدفع والدرس بناء على أن الدكتور لويس هو فاحصنا في الكيمياء ، وهو

ماضي شهادتنا في الطب والصيدلة ، وهو معلمنا في جميع العلوم المتعلقة به . فما بالكم نقضتم جميع ذلك ولم تخبرونا قبل دخولنا . فإذا كنا ونحن في بحر أشغالنا نسمع عن فصل أحد أساتذنا فما المانع من فصل آخر غداً وآخر بعد شهر . فنحن نطلب أن نعرف من هو أستاذنا في الكيمياء ، ومن هو ممضي شهادتنا .

وأما من جهة الشهادة فإن عملتموها رسمية مقبولة عند حكومتنا نحن حاضرون للفحص المدقق الذي تجرونه مع كل مشقته وخطره ، وإذا كانت ليست إلا علماً وخبراً يبين ما درسنا لكي نكون معروفين في الآستانة ، فما الحاجة الى اتلافنا بالتعب والقهر والمشقة العظيمة التي نكابدها في السنة الأخيرة في الاستعداد الفحصي . ونحن في خطر من أن يسأل أحدنا مسألة بسيطة لا تجيء على باله ساعة اضطرابه وخوفه ، فتحكمون بحرمانه من شهادتكم وهو يستحقها . فإن كانت تلك الشهادة لا تنفع أمام حكومتنا سوى نفع شهادات الملازمة فنطلب الغاءها والاكتفاء بشهادات الملازمة ، أو تسهيل أمر الفحص تسهيلاً لا يكون إلا حسب قيمة الشهادة . ونحن متوقفون عن الدرس منتظرون جوابكم » .

(ممضى من جميع تلامذة الطب والصيدلية)

وهذه صورة إقامة الحجة على فصل الدكتور لويس

« نحن لم نجيء للدرس إلا على أساتذة معلومين،وليست المدرسة عندنا

غير أولئك الأساتيذ.ولا نعلم لهذه المدرسة مدبّراً [1] غيرهم.وقد علمنا حق العلم أن بعضكم قد سبب زعزعة أركان أساتيذنا ، وقد أوجبتم انفصال التقي الفاضل الدكتور لويس بتهمة تقديمه الخمر على مائدة عزم عليها بعض الافرنج . ونحن نعلم أنه لا يستحق تلك الاهانة ، وذلك نميمة في حقه لا يستحقها . وبتهمة عدم تتميمه واجباته في التدريس ، وهذا محض افتراء ، ونحن المتعلقة بنا واجباته في التدريس أدرى . وهو أكثر تدقيقاً في واجباته من غيره . وبتهمة تصريحه في كفر داروين في خطبته الأخيرة ، وهذا لا يسلّم به كل من يفهم خطابه ويعرف تصرفه اللائق وقدرته الصالحة وتقواه ، حال كونه هو رئيس جمعية أبناء المدرسة الكلية ، ورئيس جمعيتنا الدينية الكلية ، ومقدام الأعمال الأدبية الخيرية . هذا الفاضل التقي قد وقّفتموه توقيفاً كلياً لم تراع فيه حرمته ولم يعتبر كونه قد خدم مدرستنا وبلادنا اثنتي عشرة سنة خدمة نصوحة تقية ، ولم تعطوه فرصة سنة بالأقل لتدبير أموره قبل تركه شغله . وما نبهتمونا الى ما هو جار قبل دخولنا هذه السنة ، فقد دخلنا وتممنا ما علينا من الدفع والدرس بناء على أن يكون فاحصنا في الكيمياء وهو ماضي شهادتنا وهو معلمنا في جميع العلوم المتعلقة به . فما بالكم نقضتم جميع ذلك ولم تخبرونا قبل دخولنا في بداية السنة . فإن وضعتم الحق على قوم في البلاد الأميركانية أفَلَسْتُم المبلغين الساعين.واذا قلتم لسنا جميعاً أفَلَيس بعضكم وأنتم أدرى على من توقعون اللوم . واذا كنا ونحن في بحر أشغالنا

(١) قرأها نبيه فارس « مديراً » .

لا نسمع إلا بتوقيف أحد أساتيذنا توقيفاً بغتياً فما المانع من أن نسمع بعد يومين توقيف آخر وبعد شهر آخر . فما العمل ؟ فنحن نقيم أقوى الحجج وأشدها على الذين سببوا هذه الأضرار ونطلب أن نعرف من هو أستاذنا الآن ومن يمضي شهاداتنا وإلا فما العمل ؟ » .

(وهذا الاحتجاج امضاه كل التلامذة)

أرسلنا الاحتجاج والطلبات مع وفـد قدمه الى العمدة في ٦ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، فأتانا الجواب في صباح اليوم التالي وهذا نصه بامضاء الدكتور بليس :

« حضرة أولادنا الأكرمين .

« وصل تحريركم للعمدة وبعد التأمل به نجيب عنه :

أولا : من جهة امتحانكم فقـد أقمنـا عمـدة للنظر في ذلك من ثلاثة أشهر . والعمدة المذكورة قررت تغييراً في ذلك ، وهو موضوع البحث الآن . فمتى انتهت المسألة نعلمكم بها . ولا شك أنها تكون مرضية لعمـدة المدرسة ولكم .

ثانيا : من جهة امتحانكم في الآستانة فـلا بـد أنـه من المعلوم عندكم اننا قد اجتهدنا غاية الاجتهاد ، ولا نزال الى الآن نجاهد في هذا الأمر وهو غاية ما يمكنكم أن تطلبوه منا .

ثالثا : من جهة خروج الدكتور لويس من المدرسة فإننا نفهم مـــا

حصل لكم في ذلك من الأسف، ونسلّم بما لكم من الحق في إشعاركم. ولكننا لا نرى كيف يخولكم ذلك حقاً للغياب عن دروسكم كما فعلتم هذين اليومين الأخيرين . ونرجو أن تتحققوا ما عندنا من المحبة الأبوية لكم».

٥ ك ١ [١] سنة ١٨٨٢ .

الامضاء

فلما وصل جواب العمدة الى التلامذة اجتمعوا في ٦ ك ١ سنة ١٨٨٢ برئاسة ابراهيم مطر للنظر فيه. وبعد المداولة عيّنوا لجنة للجواب عليه. فكُتب الكتاب الآتي وعُرض على الجمعية . وبعد التعديل قُبل . وهذه صورته :

« أيها السادة الموقرون أطال بقاهم .

بعد [٢] الاحترام اللائق نعرض: قدّمنا خلافه طالبين أموراً نراها أهم من ملازمتنا الدرس ومن وجودنا في المدرسة الكلية . فاجبتمونا عن أحدها وأغضيتم النظر والاجابة عن البقية التي هي عندنا عظيمة الأهمية. ولذا لم نزل منتظرين الجواب عليها جواباً صريحاً خالياً من كل التباس ومطل . طلبنا أن تحتموا لنا على ماذا صممتم لتدبير فحص الاستانة فلم نجاوب ، وطلبنا أن تعينوا لنا الأستاذ الفاحص في الكيمياء والتحليل الكيمي فلم نُجَبْ ولا عن هذا أيضاً . والآن نكرر الطلب .

---

(١) قال نبيه فارس : كذا في المذكرات مع أن الاحتجاج أرسل في ٦ ك ١ كما ورد قبلاً .
(٢) أضاف نبيه فارس « واواً » وأثبت « وبعد » .

(١) بايضاح تصميمكم على أمر جلي يتعلق بالامتحان في الاستانة، كارسال معتمد خصوصي أو عمل ما لا ينقص قيمة عن ارسال معتمد. ونريد أن نعرف من هو المعتمد، ومتى يذهب، لأن الصبر لم يثمر معنا ولا مع من سبقنا. وفرط التأني لا ينفعنا شيئاً حول كون بعضنا مستعدين للذهاب الى الاستانة عند انتهائهم من هنا.

(٢) نطلب أن تعيّنوا الأستاذ للكيمياء الوصفية والتحليل والجيولوجيا والطبيعيات، إما بارضاء سيادة الدكتور المحترم لويس أستاذنا بأن يبقى الى منتهى السنة، اذا كان العائق منه، أو تدبير ما يلزم لبقائه اذا كان العائق منكم، أو مخابرة العمدة الأميركانية تلغرافياً اذا العائق منها، وإلا فمن تعينون؟

(٣) نطلب أيضاً تاميناً على أن الأساتيذ الموجودين الآن يبقون في مراكزهم وتدريسهم الى منتهى سنة المبتدئين على الأقل. ونطلب أن تدرّسونا الكيمياء الآلية والجيولوجيا والتشريح المكرسكوبي والتمرن على الجراحة العملية، وهي العلوم المطلوبة منا في الاستانة. هذا ونرجو أن يكون معلوماً عندكم ما لكم عندنا من الاعتبار الأبوي».

الامضاءات

وفي هذه الجلسة شدد الأعضاء في وجوب حضور كل تلميذ أو عضو في الجلسات، ومن يغيب يغرّم بمجيدي واحدة عن كل غياب، وأن يكون الكلام بهدوء ومن تكلم بحدة لا يتكلم. ودارت المناقشة في هذه الجلسة

عن الثبات في المطالبة بالاتحاد ، وعين أحد الأعضاء ، اسكندر البارودي، أن يسال كل واحد بمفرده عن الثبات ، وأنـه اذا قبلت العمدة مطاليبنا وقصدوا الوقيعة بأحدنا فنبقى مصرين معاً حتى يرتفع الضرر عنـــه . فاجابوا بالايجاب كل واحد عـلى حدة ، وتعاهدوا عـلى المحافظة والثبات الى النهاية .

وعادوا الى الاجتماع بعد الظهر ، وفي هذه الجلسة أقسموا اليمـــين المتقدم ذكره ، أقسمه كل على حدة وتباحثوا في أشياء كثيرة .

وفي جلسة اليوم التالي في ٧ منـه بحثوا في رفـع دعواهم الى لجنـــة ملاحظة المدرسة ، وهي العمدة العليا ، وهم المبشّرون المنبثّون في أنحاء سوريا للتبشير وغيره ، وذكروا أسماءهم وهم :

المستر كروفورد	في الشام
المستر دايل	في زحلة
المستر بور [١]	في القدس
المستر متيني	في اللاذقية
المستر مارش	في زحلة
الدكتور فانديك	في بيروت
الدكتور بركستوك	» »

---

(١) صححها نبيه فارس « مور » .

المستر برد	في عبيه
المستر نلسن	في بيروت
الدكتور بوسط	»
دكسن	»
انس [1]	»
ادي	»
جسب	»

وتعينت لجنة للبحث في أسماء هذه العمدة وحقيقة أماكنها حتى تقررت كما تقدم ، وعند ذلك تعينت لجنة لكتابة صورة الاستئناف وهذا نصها :

« المدرسة متوقفة لاسباب تعلمونها عند الطلب ، ولأنه يهمكم ويهمنا ثبوتها وسقوطها نستدعي التفاتكم العاجل الى أمرها . وقد وقع الخلل في أعضاء عمدتنا ولا نراهم قادرين على ملافاة الحال . ولولا ذلك لما التجانا اليكم ، فنؤمل أن تنظروا الى أمرنا بعين الأهمية عاجلاً لأنها تبقى متوقفة الى بعد نظركم فيها ودمتم » .

وأمضاه الجميع وقدموه الى لجنة عينوها لتقديمه الى أعضاء عمدة المدرسة العليا ، فكتبوا منه نسخاً وتفرقوا في أنحاء المدينة قدموه الى الذين تمكنوا من مشاهدتهم (ومنهم بركستوك ودنس وادي وغيرهم) . وسمعوا منهم خيراً . واجتمعت التلامذة في ذلك اليوم ، وهي الجلسة

(١) في الاصل « دنس » وصححها نبيه فارس .

السادسة للجمعية . وفي هذه الجلسة بحثوا في نشر حالهم على ذوات المدينة وكبار أعيانها ، فتعينت لجان ذهب كل منها لمقابلة كبير من الكبراء، منهم مستر موط ، ورستم باشا ، وقنصلاتو انكلترا ، وقنصلاتو اميركا ، والمعلم بطرس البستاني ، وقنصل ايطاليا ، ويوسف بك عرمان ، وقنصلاتو بروسيا ، وسليم شحاذة ، وقنصلاتو فرنسا ، والمعلمات الاميركانيات . فذهبوا وعرضوا ظلامتهم الى هؤلاء ، وكانوا ينشّطونهم ويستحسنون حرية تصرفهم وتمنّوا إنصافهم .

أما عمدة المدرسة فتعينت لجنة لأخذ جوابها على كتاب التلامذة الأخير ، كنت واحداً منها . فقالوا أنهم يجيبوننا شفاهاً على يد المعلم[1] يعقوب صروف بصورة غير رسمية . فاستدرجنا المعلم يعقوب فقال إنه لم يكلف بذلك ، ولكنه يقول من عند نفسه أنه يشير علينا أن نرجع الى صفوفنا موقتاً بينما تجتمع العمدة العليا من أنحاء سوريا وتنظر في قضيتنا. فتقرّر الرجوع، وتعينت لجنة تبلغ عمدة المدرسة برجوعنا موقتاً بينما نرى حكم العمدة العليا . وظلت التلامذة يجتمعون بصفة جمعية متحدة تبحث بمطالبها . فعينت لجنة تكتب صورة الشكوى التي يرفعونها الى العمدة العليا حين اجتماعها .

واجتمع التلامذة في ١٠ ك ١ جلسة ترأسها رشيد قبلان. فعرضت عليها الشكوى كما كتبتها اللجنة . وبعد تعديلها وتحريرها في جلسات

(١) كذا في الاصل . وأثبتها نبيه فارس « الاستاذ » .

متوالية آخرها في يوم الاربعاء في ١٣ منه ، اجتمعت في قاعة التشريح ، تقرر أن تكون صورة الشكوى كما ياتي .

« ايها السادة المحترمون

بعد الاحترام ، نعرض أننا ونحن في بحر دروسنا صابرون على مصائبنا ، واذا بحوادث داخلية في المدرسة فاجاتنا فاضطربنا لها كل الاضطراب ، واشتغل بالنا وصرنا لا نعلم كيف والى أي حال تصير مدرستنا . ولم يعد يمكننا الدرس ولا العمل ،فكتبنا الى عمدتنا رسالة قلنا فيها إننا نظراً للاضطرابات التي أصبحت المدرسة فيها صرنا في حالة لا تمكننا من الدرس والتسميع . وذكرنا أننا مزمعون أن نقدم لأساتذتنا كلاماً مفصلاً ... وفي اليوم التالي قدمنا الرسالتين الآيتين :

(ثم ياتي نص الرسالة الاولى والاحتجاج)

فاجابتنا العمدة بما ياتي (صورة جواب العمدة)

فكتبنا اليها ما ياتي (صورة الرسالة)

ثم كتبنا ما ياتي (« «)

ولما رأينا أن عمدتنا في أحوال لا تمكننا من الحصول على حقنا ، بادرنا بإعلامكم، لما علمنا أنكم المدبرون الذين يهمكم النظر الى جميع هذه الامور، ويهمكم نجاح مدرستنا وخير تلامذتها. فتقدمنا اليكم بمطاليبنا التي

قدمناها الى عمدتنا ونزيد عليها ما ياتي .

« وهل حق لعمدتنا أن تفصل استاذاً قبل نهاية السنة التي هو فيها بدون أن تكون قد عيّنت بدله ، أوَلا يضر ذلك بصالح التلاميذ الذين يتعطل عليهم كثير بتركهم مدة بدون استاذ ، حال كون علم الكيمياء والتحليل عليهما الاعتماد في السنتين الاولى للمبتدئين في الطب ولتلامذة السنتين في الصيدلة .

« وماذا نعمل بكتاب الكيمياء الجديد الذي قد درسنا قسماً كبيراً منه ودفعنا ثمنه وهو لا يزال تحت الطبع ولم يسمح لاستاذنا الدكتور لويس بفرصة لإتمامه ، حال كونه كتاباً ضرورياً لدرس الكيمياء وقد دفعنا ثمنه ولا شيء أمامنا ندرس فيه .

« وقد التجأنا اليكم أيها الأفاضل متاكدين أنكم تفحصون الأمر فحصاً مدققاً ولا تهملون الحق ولو كان طلبه من حقيرين مثلنا ، لان الحق من الله ومن يحب الله يتبع الحق ويبيّنه ويتكلم به. فنطلب اليكم أن تفحصوا دعوانا وتنظروا الى مطالبنا. واذا أردتم فعينوا لجنة تنظر في ذلك باسرع ما يمكن ، وبذلك تكونون قد عملتم خيراً مع مدرستنا وقد أنصفتم تلامذتها وخدمتم الحق الذي يخدمه كل تقي خائف الله . هذا ما لزم مع الاحترام ودمتم ».

(ويلي ذلك الامضاءات)

كتب هذا الاستئناف على رق بارشمن طويل وذيلناه بإمضاءاتنا .

وفي يوم السبت في ١٦ ديسمبر المذكور وهو اليوم الذي ستجتمع عمدة الادارة العليا في مسائه للنظر في القضية ، اجتمع التلامذة وقرروا أن يذيلوا ذلك الاستئناف بالشكوى على الدكتور بوسط بدعوى أنه سبب هذه المشاكل . حملهم على ذلك ما قد بلغهم من سعيه الحثيث لدى أعضاء العمدة العليا الآتين من الخارج ليقنعهم ان التلامذة متمردون ويوجّه أفكارهم الى إساءة الظن بهم ، فقررت الاكثرية أن تقدم الشكوى عليه . فكتبنا على قفا ذلك الاستئناف الشكوى الآتية وهي :

« أيها السادة الأفاضل الذين تهمهم معرفة الحق وضمائرنا .

«بعد الاحترام نعرض أنه لا بد لنا من بيان ما أوجب علينا الكدر والاضطراب في المدة المتأخرة وما أحوجنا الى عرض الأمر اليكم. نقول أيها السادة أنتم تعلمون ما في جناب الدكتور بوسط من حدة الطبع ، ولا يخفى عليكم الامور التي تسوق اليها الحدة . ولذلك كنا نسمع الناس في الخارج يشتكون ويتشكون بمرارة على تصرفاته معهم [1] . قد اختبرنا صحة ذلك بانفسنا . ومعاملته المرة للتلامذة الذين سبقونا ولنا كانت . تضر بآدابنا ضرراً بليغاً ، وتكدر قلوبنا وتميت عواطفنا وتكرّهنا في الدرس ، وقد أدى الاضطراب بجمهور التلامذة الى

(١) كذا في الأصل ، وأثبت نبيه فارس نصاً غير موجود في الأصل . « ... يتشكون بمرارة من تصرفات جناب الحكيم معهم على تصرفاته معهم ! »

شكوى الأمر الى عمدة مدرستنا منذ بضعة أشهر . وصرنا نرى ان جميع المصائب التي تحدق بنا في أحوال مدرستنا منه . وصرنا نلتفت الى رئيس مدرستنا المحترم الذي كنا نعتبره كثيراً اعتباراً والديا التفات الحذر ، لأننا كنا نراه يلتصق بجناب الحكيم محامياً عنه . وبعد أن ظهر ان الرئيس هو الذي سعى بإبعاد استاذنا الفاضل الدكتور لويس الذي نحبه ونعتبره ، صار عندنا أن الحكيم بوسط هو المصدر الأصلي لأتعابنا، وعندنا أدلة على ذلك نبرزها عند الطلب ، وأن الرئيس قد شاركه بها ولذلك أصبحنا قلقين لا يهدأ لنا بال ولا نعلم كيف نطلب مطالبنا من عمدتنا ونحصل عليها .

« وهنا نريد أن نبين ما لم نبينه صريحاً لعمدتنا وفي عريضتنا السابقة ، وهو أن سكوتنا عن المعلم الحالي في الكيمياء ليس ناتجاً من قبولنا إياه ، بل من خضوعنا الحالي للقانون . ونطلب اليكم تعليم الاقراباذين العملي للصيدليين الذين قدموا للعمدة رسالتين ولم يجابوا عليها ، وتعليم الكيمياء الاقرباذينية لهم التي كان يدرسها الذين سبقونا عند الدكتور لويس . هذا واذا طلب منا إثبات جميع ما تقدم أثبتناه للجنة التي تعينونها لذلك . وعلى كل حال أردنا إيضاح ضمائرنا والله يديم وجودكم » .

وقد أمضى هذه الشكوى التلامذة إلا اسكندر دباك وخليل سعاده وكانا قد خانا الرفاق ورجعا الى المدرسة، واعتذر تلميذ ثالث عذراً مقبولاً، نعني الياس سابا اعتذر أنه يحب أن يشاور الدكتور ورتبات لانه واسطة تعليمه .

لا أنسى قلقنا مساء السبت المشار اليه والعمدة مجتمعة في قاعة المدرسة الكبرى ، وهي قاعة الكنيسة يومئذ وصارت الان قاعة المكتبة . فقد كنا نطوف حول المدرسة ننتظر إرفضاض الجلسة فنستفهم[1] من بعض أعضائها عن مجرى القضية على الأقل وان لم نعرف الحكم التام . فطال اجتماعهم، وكانت تاتينا الاخبار المتقطعة من بعض الوقوف بالقرب من القاعة بان الجدال احتدم والخصام قام . ونحو الساعة التاسعة مساء أو العاشرة رأينا الأعضاء خارجين وقد ركب كل عربته وسار في طريقه . فارسلنا أناساً يستفهمون من بيت الدكتور فانديك ، فعلمنا أن العمدة انقسمت شطرين في أثناء القضية ، وخصوصاً بشان الشكوى على الدكتور بوسط . وكان الدكتور فانديك المكلف بتلاوتها لسهولة القراءة العربية عليه . فلم يتلو سطرين حتى نهض احد الحضور وطلب إسكاته لأن موضوعها طعن شخصي . فاعترض آخرون بأنها شكوى وهم قضاة يجب عليهم سماع القضية المرفوعة اليهم . ثم أخذت الأصوات فكانت الأكثرية أن لا تُقرأ . فشقّ ذلك على فانديك والمنصفين من الاعضاء ، منهم نكسن وبركستك . ودارت المباحثة في المطاليب الأخرى فقرّ الرأي أن يعهد بذلك الى عمدة المدرسة الأصليين النظر فيها مع أنهم أخصام لنا،وهذا منتهى العدل في الحكم؟ وإنما ساقهم اليه التعصب الجنسي وإحتقار أبناء العرب، كأنهم أكبروا عليهم أن يرفعوا أصواتهم للشكوى من أساتذة اميركان مع أنهم هم الذين علموهم الحرية الشخصية

(١) كذا في الأصل . أثبتها نبيه فارس « فنتفهم » .

والشجاعة الأدبية .

فلما رأى الدكتور فانديك ذلك اعترض على القرار وطلب أن تعين لجنة تنظر في مطاليب التلامذة وتفحص ما يقولونه فإذا كانوا مخطئين حكموا عليهم وإلا أنصفوهم . فلم يصغ أحد الى قوله . وعُلم أن العمدة ستقرر طرد التلامذة من المدرسة ولا تقبل منهم إلا من يسحب إسمه ويرد شكواه . فاعترض على ذلك وقال انه إذا أصرّت على هذا القرار فلا يرضى هو أن يكون من جملة الحاكمين ذلك الحكم الجائر. وخرج من الجلسة غَضِباً . وقد شاهدتُه وهو يركب عربته والغضب باد على محياه .

وفي صباح الاثنين في ١٨ ديسمبر علقت عمدة المدرسة على لوح في دهليز المدرسة العلمية إعلاناً هذه صورته :

« انه بموجب قرار مديري المدرسة السورية الانجيلية وحكمهم على التلامذة الذين قدموا تحريراً غير لائق بشأن بعض الاساتيذ في ١٦ ك ١ سنة ١٨٨٢ أن يتوقفوا عن الحضور الى المدرسة والمستشفى شهراً ، ثم لا يعاد منهم حينئذ إلا من استردّ إسمه من ذلك التحرير وأظهر الطاعة لقوانين المدرسة . وإجراء لذلك تعلن الآن عمدة المدرسة اسماء الذين يجري عليهم الحكم المذكور ، أما بقية التلامذة فيرجعون إلى الصفوف كالعادة » .

(ويلي ذلك أسماء التلامذة الذين وجدت أسماءهم في تلك الشكوى)

وكانت الشكوى المشار اليها مذيلة بأسماء كل التلامذة إلا ستة : إثنان خافا وهما دباك وميلان ، وسابا استاذن ويستاذن ورتبات كما تقدم ، وإثناسيوس صيقلي توقف لعذر له . وإثنان هما انطون نوفل وحبيب كحيل . فلما صدر الاعلان لم يرجع إلا دباك وانطون ميلان، ثم رجع سابا والكل يقدرونه لأسباب معروفة ، ثم رجع خليل البرباري مع أنه كان في جملة الممضين . أما صيقلي ونوفل وكحيل مع أنهم لم يحضروا فقد ثبتوا في المطالبة الى النهاية ولم يعودوا الى المدرسة قط .

لما صدر ذلك الاعلان ظن واضعوه انهم لا تلبث أن يعلقوه حتى يتهافت التلامذة على استرداد أسمائهم والاعتذار ، ولكنهم لاقوا منهم ثباتاً عجيباً لأنهم لم يعودا يلتفتون الى المدرسة ، ولكن ساءهم ذلك الحكم الجائر فكتبوا الى مديري المدرسة كتاباً مختصراً ثم أردفوه بكتاب شديد اللهجة جعلوه آخر المخابرة معهم .

فالكتاب الاول هذا نصه :

« نعرض قد قدمنا اليكم تقرير الحوادث التي جرت في المدرسة وشكونا اليكم أتعابنا وأمورنا وطلبنا اليكم النظر والفحص فلم تجيبوا كتابة. ولكننا رأينا على لوح المدرسة إعلاناً بامضاء العمدة يظهر انه حكم علينا بحرمان المدرسة والمستشفى مدة شهر لأننا قدمنا التحرير المؤرخ في ١٦ الجاري وفيه شيء بحق بعض الاساتذة . ولم يذكر في إصدار الحكم الجناية التي جنيناها ولا القانون الذي جوّز الحكم المذكور ، حتى ولم نر

فحصاً ولا فاحصين للأمور التي قدّمناها بشان بعض الأساتيذ . فنرجوكم أن تعرفونا هل ذاك الحكم هو حكمكم وما هي الأسباب التي استوجبنا لأجلها هذا الحكم ، والقانون النظامي الذي صدر الحكم بموجبه ، لأننا ممنوعون عن الدرس والمستشفى والمائدة ، ونحن دافعون الدراهم عنها أجمع . فنرى أنفسنا مظلومين وحاشاكم الظلم، ونرى لنا حقاً أن نطالبكم بما حرمتمونا منه بلا جناية واضحة ، فنرجوكم الجواب على هذا الخطاب بأقرب وقت والسلام ».

وبعد أيام لم يرد الجواب فكتبنا اليهم الجواب الآتي :

« ايها السادة الأفاضل أدامكم الله في دائرة العدل

« بعد الاحترام وما يجب للمقام نعرض راجين حكمتكم بان تبقوا حكمكم في هذه الكلمات الى ما بعد قراءتها والاطلاع عليها . يا سادتنا لم يخطر ببال عقلاء سوريا ولا في أذهان ابناء المدرسة الكلية تلاميذكم أن قوماً أفاضل مثلكم ينتسبون الى بلاد الحرية الاميركانية يحكمون في الامور قبل الاطلاع عليها ، وفي المطالب والشكاوى قبل معرفة شيء من أمرها ، ويرفضون استماع مطالب شبان لم يظهر عليهم علامات الطيش في كل ما عملوه ولم يطلبوا غير الحق في جميع ما طلبوه . فهل قاصصتمونا لاننا طلبنا الاستئمان على بقاء اساتيذنا العلماء الفضلاء الى كمال المدة التي تقتضي لنا وهل يحسب هذا الطلب جناية ، أو حكمتم علينا بالنفي من مدرستكم لأننا طلبنا العلوم التي أمرت دولتنا العلية أيدها الله ان

تعلمونا إياها، أو أهنتمونا لأننا قلنا لكم انه يهمنا جداً جداً تدبير الشهادة بحيث تكون مقبولة عند حكومتنا السنية، أم كان ذنبنا أننا بيّنا لكم ما ألجأنا الي أن نعرض الأمر ونستأنفه اليكم قائلين أن عندنا شكاً في حكم عمدتنا لأن لأحد أعضائها غرضاً وللآخر خلقاً لانكون معهما في أمن من الحصول على مطاليبنا ، وقلنا لكم أن عندنا إثباتاً لكل ذلك . وهل تحققتم سقوط دعوانا بالفحص والتدقيق . وكيف ساغ لكم أن تحكموا علينا قبل استماع دعوانا . وهل عينتم لجنة للفحص كما طلبنا منكم نحن وكما تطلب منكم جميع الشرائع والنواميس .

« يا سادتنا كنا نحسب ان رفع المطالب الي فضلاء اميركان مثلكم وطرح أنفسنا أمام أتقياء جاءوا الي بلادنا ينادون بأنهم يخدمون الحق والخير ، والتجانا الي أحضانهم لتسوية مسالتنا ، أمور كافية لتحصيل ما طلبناه وللارتياح من جميع ما تعبنا منه . ولذلك رجعنا الي دروسنا وتممنا جميع واجباتنا لكل إستاذ من أساتيذ المدرسة بالاحترام والوقار . وبينما كنا مهتمين في واجباتنا المدرسية ، ملقين حملنا عليكم يا أعضاء الادارة ، مقدمين مطاليبنا وتشكينا اليكم ، جئتم من أنحاء شتى من البلاد فاستبشرنا من مجيئكم بالخير ، واجتمعتم في ١٦ ك ١ ، واطمانت قلوبنا بأن اجتماعكم يكون حاسماً لكل المسائل ، مدبراً لكل المطالب . ولكن لما رأينا انكم في تلك الجلسة الوحيدة لكم ، وحال وصول طلباتنا اليكم وفي ساعة قراءتها عليكم أسرعتم وأعجلتم الي الحكم بأمر عمدة مدرستنا بأن تنفي جميع التلامذة الذين أمضوا التحرير شهراً ، ولا تؤذن لمن

يروم الرجوع إلا بعد إسترداد إسمه ، ولم تسمعوا ولم تفحصوا ولم تتأنوا كما تأنينا نحن . فاقبـــل رئيس مدرستنا يطرد ويهدد ويامر ويشدد . فجُلب بأمره الحبال من السوق وربط فرشنا وحوائجنا، وأمر الخَدَمَة أن تمنعنا عن أخذ ما يخصنا ، وطردونا عن المائدة . فلما رأينا جميـع ذلـك ونظرنا الي تلك المعاملة خابت منا الآمال وصبرت أنفسنا على الأهوال ، وأطعنا كل الطاعة وخضعنا كل الخضوع وقلنا لا حول ولا قوة الا بالله وبالعادلين من عبـاده . وخرجنا ننظر الى حقوقنـا وتشكياتنا نظرة ، والى حكمكم وعدم فحصكم نظرة أخرى. وقد خابرنا بعضكم في أثناء مدة النفي مخابرة شفاهية ، مسلمين انكم لم تترووا في الأمر ولا حكمتم بعد الفحص ، وانكم لم تنظروا الى معاني الكلام الذي قدمنـاه . وقـد رضي أحدكم أن تقصر مدة التوقيف بشرط أن نسترد الأسماء ، فقلنا له أننا نستغرب هـــذه الطريقة كما أننا نتعجب من تصرف أعضاء الأدارة معنا . وما ذنبنا حتى نقاص ، وما الجناية التي جنيناها ، وكيف نسترد أسماءنا من كتابة نعتقد أن لنـــا الحق فيها . وكل عاقل في الوطنيين والأجانب قد أعتقد ذلك . ثم قـال إن العمدة قبلت بأن تسترد التحرير بشرط أن نقدم تحرير التأسف ممضياً باسمائنا . فأردنا أن نسال جنابكم قبل الامضاء بعض الأسئلة وعند الإجابة عليها جواباً مرضياً نعمل حسبما تامرون وتشاؤون .

(١) ما هي الجنـاية التي جنيناها واستحقينا قصاصاً كهذا لأجلهـا وأي قانون يجوز ذلك ؟

(٢) هل تؤمّنون على اساتيذنا الذين دخلنا وهم موجودون الى تكملة دروسنا ، أي هل لا تخرجوا بعضهم الى ترك المدرسة ؟

(٣) هل قررتم أن ندرس العلوم التي طلبتها دولتنا العلية منا وأنتم لا تـدّرسوننا إياها ، وهل عينتم لنا مدرسين للعلوم المذكورة .

(٤) هل اهتميتم بتدبير الشهادة أكثر من قبل بحيث ترتضي دولتنا بهـــا .

(٥) هـل دبرتم مـا يريحنـا من أتعابنـا المدرسية بحيث يغير استاذنا الدكتور بوسط بعض أخلاقه وتقتنع ضمائرنا بأن ليس لرئيس مدرستنا غرض علينا .

(٦) هل ما سمعناه صحيح ان بعضكم يعتقد بأن جميعنا نرجع الى المدرسة ونسترد أسماءنا ونندم على طلب حقوقنا ونسكت عن طلب عطلنا وضررنا المادي والأدبي مستدلاً على ذلك من خيانة اسكندر دباك (الملقب عندنا بأرنوط) وانطون ميلان (الملقب عندنا بخنث) وخليل برباري الذي لم يلقب بما يليق به بعد . وهل صحيح انكم تظنون أن ابناء الشرق في حال تستحق تلك المعاملة التي عاملتموهم بها، وأن تلامذة الطب جميعهم كأرنوط وخنث وبرباري . نرجوكم الافادة على جميع هذه المسائل ولو كان بالمجاسرة عليكم . وإذا لم تجيبونا عليها فكيف نضع أسماءنا

حسب طلبكم . وعند ذلك ندرك سيادتكم بكل عطل وضرر لحق بنا بسببكم . هذا ما لزم مع الاحترام اللائق بجنابكم » .

الامضاءات

هذا آخر كتبنا اليهم، ولكن العمدة كانت في أثناء الفترة بين انذارها وبين هذه الكتب قد وسطت الدكتور ورتبات في استرضائنا بطريقة ظنها ورتبات ترضينا . ولم نجد فيها غير شطب اسمائنا من كتاب الشكوى. وتفصيل ذلك ان الدكتور ورتبات أرسل إلينا يوماً وكان أكثر التلامذة سافروا الى بلادهم ، ولم يكن في بيروت غير أنا واسكندر بارودي وقليلين ، فبعث ورتبات الينا في منزله ، فبعد مقدمة طويلة عريضة تدل على حسن قصده بذلك التوسط قال إنه أقنع العمدة بطريقة نتصالح بها معهم بدون أن نسترد أسماءنا من ذلك التحرير . فقلنا : وما ذلك؟ فمد يده الى جيبه واستخرج ورقة عليها كتابة قال ما عليكم إلا أن تمضوا هذه الورقة . قلنا: ما هي فقرأها ، فاذا هي :

« اننا نأسف على كل كلمة أو عبارة جاءت في كتابنا الاخير تحمل على عدم الاعتبار لجناب الدكتور بوسط، ولذلك فاننا نسحب ذلك التحرير » .

فاستغربنا هذا الطلب لأننا لم نفهم منه غير ما جاء في نص الاعلان . فاخذ الدكتور ورتبات يبرهن لنا أنه أخف منه كثيراً، لأن كلمة «تحمل» فيها كل السر ، أي ان ما كتبناه لم نكن نقصد به الاهانة ولكنه حمل على

الاهانة ، فلم يقنعنا قوله ورجعنا .

وسعت العمدة من طرق أخرى لاسترضاء الفقراء من التلامذة وكانت تعلم اني لم أكن أدفع الراتب المدرسي إلا بالجهد . فبعث إلي صالح الصليبي ، وهو وكيل خرج المدرسة ، فلقيني في بيت ابراهيم الصليبي ، وأخذ يلمح لي أنه إذا كان المانع من رجوعي الى المدرسة عـــدم وجود الدراهم فالرئيس لا يأخذ مني شيئاً . فأجبته جواباً يشف عن ثبات في المبدأ مع ما تقتضيه حدة الشباب فانصرف .

وكان هذا آخر عهدنا بمخابرة الامـيركان ، وأخذنـا نلتفت الى مستقبلنا .

وقد كنت أكثر الجميـع خطراً على مستقبلي ، لأني دخلت مدرسة الطب أنفق على نفسي من تعبي ، على أمـل أني أبدأ بعـد دخولي السنة الثالثة أن أعالج معالجات بسيطة في حيّـنا فاردّ بعض النفقات أتساعد بها،ومتى نلت الشهادة في آخر السنةالرابعة أبدأ بالمعالجة رسمياً فأتعيّش . فكانت كل آمالي معلقة في إتمام صناعة الطب .

فلمـــا خرجنا من المدرسة على تلك الصورة شعرتُ بانقطاع حبل الأمل ، وأن تعبي ذهب سدى ، ولكنني كنت قد عزمت على إتمام صناعة الطب في مدرسة القصر العيني بمصر إعتماداً على كتاب جاءنا من وكيلها يومئذ ... بواسطة الخواجه ملحم شكور (شكور بك الآن) . وكان

في القاهرة رئيساً للمدارس الانكليزية بالفجالة . وكتب اليه إبن فليحان أحد تلامذة الطب معنا . وكان في المدركين ، وهو من عين زحلتنا بلد شكور . فساله إذا جاء بعض التلامذة من بيروت لإتمام الطب في قصر العيني هل يقبل امتحانهم ويدخلوا في الصف الذي يليق بهم بعد الامتحان. فجاء الجواب أنهم يُقبلون في الامتحان فيدخل كل منا في الفرقة التي تليق به .

وانقسم تلامذة الطب الذين لم يرجعوا الى المدرسة قسمين : أحدهما تلامذة الصف الأخير المنتهي ، والآخر باقي الصفوف . فالمنتهون أتموا دروسم عند فانديك في منزله ، وتزودوا بتواصٍ قوية من أصحاب المراكز المهمة في سوريا الى الآستانة ، حتى تقبل الحكومة امتحانهم ولو لم تكن معهم شهادة المدرسة ، وإن استعاضوا عنها بشهادة من لجنة طبية تشكلت في بيروت لإمتحانهمبعد أن أتموا تلك السنة بالدرس على فانديك . واللجنة المذكورة مشكلة تحت رئاسة مراد بك طبيب العسكر في بيروت، من الدكتور فانديك، والدكتور لويس ، والدكتور أبو طاجي، والدكتور زعني ، والدكتور بركستك ، والدكتور ورتبات .

اجتمعت هذة اللجنة في بيت الدكتور فانديك ، وامتحنتهم امتحاناً رسمياً ، وأعطت كلا منهم شهادة مطبوعة تشبه شهادات سائر المدارس .

وقد أفلحوا ، وقُبل إمتحانهم في الآستانة ، ونالوا شهادة الآستانة .

وهم الآن يعملون في الطب . بعضهم في الشام ، والبعضُ الآخر في مصر وغيرها . ومنهم الدكتور اسكندر بارودي في بيروت ، والدكتور ابراهيم صليبي في السلط ، والدكتور باخوس الحكيم (توفي) ، والدكتور جورج باز في دير القمر ، والدكتور سليم جريديني (توفي) ، والدكتور انطون نوفل بالقاهرة ، والدكتور حبيب كحيل في مصر ، والدكتور ابراهيم مطر ببيروت ، والدكتور ابراهيم ثابت (اليوم في باريس) .

والقسم الآخرسائر الصفوف فإنهم يئسوا من النجاح خارج المدرسة، فرجعِ بعضهم اليها ، وخصوصاً أبنـاء صفّـي ، فإنهم رجعوا جميعاً ولم يبـقَ غيري منهم وأثناسيوس صيقلي ، رئيس قـلم بالاشغال . وصفّ المبتدئين رجع أكثره لم يَبْـقَ منه خارجاً إلا يوسف زحلوط ، صار الآن محامياً شهيراً ، ونسيب شبلي (انتحر في امريكا) . وفي صف المدركين لم يبق على ما أذكر إلا أمين فليحان ، وربما بقي حسن نصار ، واكتفى بما عرفه أو عاد فكمّـل ، لا أذكر .

فعزمتُ أنا وفليحان أن نأتي الى مصر لإتمام الطب بمدرستها إعتماداً على الكتاب الذي في يدنا من وكيل نظارة المعارف ، وعـلى مساعدة الخواجة ملحم شكور . وكنتُ أنا وأثناسيوس صَيْـقلي لما تألفت اللجنة الطبية لامتحان تلامذة الطب المنتهين وبعض المدركين قالت للمحوّلين والمبتدئين : من أراد أن يقدم إمتحاناً بالصيدلة فإذا اجتازه تُعطى اليـه شهادة الصيدلة . فتقدمت أنا وهو ، ونلنا الشهادة الصيدلية، وهي لاتزالُ عندي . غير أني لم أنـوِ الإشتغال بالصيدلة قط .

فلما عزمتُ أنا وفليحان على السفر الى مصر لتكملة الطب أخذنا نهتمُّ في ما ينبغي عمله. فرأيتُ أن أتزود بكتب توصية من بعض أصحاب المراكز العالية في سوريا الى الخديوي أو الى رئيس مدرسة الطب. وهو يومئذ عيسى بك حمدي (عيسى باشا) . فذهبتُ أنا الى الشام أتيتُ بتوصية من مشير الأوردي الخامس الى رئيس مدرسة الطب، وكتاب من البطريرك الانطاكي (متوايوس) الى بطريرك الاسكندرية (اغابيوس) ، وأردت أن آخذ كتاباً من والي الشام الى الخديوي فاعتذر أنه ليس بينه وبين الخديوي مواصلات . وصاحبي فليحان أتى بكتاب توصية من رستم باشا متصرف جبل لبنان الى الخديوي ، وفيه اشارة الى ما لسوريا من الحق بإرسال بعض أبنائها يتعلمون الطب في القصر العيني مجاناً من أيام إبراهيم باشا .

ولما دنا السفر وجدتُ أني قصّرتُ في أهم اللوازم أعني مصاريف السفر . ولم يكن عندي منها شيء ، ولا أطلب من والدي لعلمي بقصر يده عن ذلك . وهو رئيس عائلة عليه أن يعولها بتعبه . وكان لنا جار في اللوكندة يصنع القضامة والملبّس وغيرها اسمه مصباح المحمصاني [1] ، كنتُ قد عاشرته وصادقته مصادقة الجيران ، فوجدت فيه إخلاصاً ، وطيب عُنصر ، حتى كنت أستأنسُ بمشورته ، ولا أدري اطّلع أو لحظ أني مسافر الى مصر وليس عندي ما أتزوده للنفقة في الأيام الأولى بمصر ريثما

(١) سبق أن سماه (ص ٤٦) عمر المحمصاني .

أدخل مدرسة الطب . لأننــا إن دخلناها كانت كل نفقاتنا من الأكل والعيش عليها . فلمّا علم ذلك ناداني ذات يوم وتدرّج في حديثه حتى استنزلني ، فأخبرته الحقيقة ، فمدّ يده ودفع اليّ ستة جنيهات قال : خذ هذه ، فإذا كانت لا تكفي أعطيتك غيرها . فأخذتُها وشكرته ، وضممتها الى ما كان معي . وهممتُ بالسفر . ولا أنسى تلك الأريحية منه . ولذلك فاول ماتعاطيتُ العمل بمصر – أي بعد ذلك الحين بسنة – أرسلتُها اليه مع أسعد الخش ، وهو عائد من مصر الي سورية .

سافرنا الى مصر سنة ١٨٨٣ في اكتوبر . وهي السنة التالية لسنة عرابي . وقد أُصيبت مصر فيها بالكوليرا فتكتْ فيها فتكاً ذريعاً . وما صدّقنا أنْ خفّتْ الوفيات وبطلت الكرنتينا حتى سافرنا، وركبنا في باخرة انكليزية تجارية هي أول باخرة حملت ركاباً الى مصر بعد الكرنتينا تلك السنة . وهي أول مرة ركبتُ فيها البحر . فقاسيتُ من الدوار ألواناً ، ناهيك برائحة الباخرة فإنها تجارية ، كانت تحمل غنماً وبَقَراً ، وناهيك برائحة المزابل . ولحسن الحظ كان سفر الباخرة رأساً من بيروت الى الاسكندرية .

وصلنا الاسكندرية صباحاً ، ولا أنسى إشرافي عليها من البحر ، فإنها أول مدينة أطللتُ عليها من البحر بعد بيروت. وكانت دهشتي أعظم لمّا نزلتُ المدينة ، ومررت في أسواقها و (رأيت) ما فيها من آثار الحريق والهدم في أثناء الحوادث العرابية ، وقد شاهدت أبنية المنشية آكاماً من

الأحجار المتراكمة ، غير آثار الحريق الهائل ، مما يفتت الأكباد .

نزلنا في لوكندة قرب المنشية بضعة أيام ، ثم انتقلتُ الى القاهرة أنا ورفيقي فليحان ، نزلنا في أحد الفنادق . وكانت قليلة يومئذ . قضينا بضعة أيام بالراحة ، وصاحبي يبحث عن مواطنه الخواجة ملحم شكور . فعرفنا مقامه بالفجّالة حيث المدارس الانكليزية الآن. فذهبنا اليه ، فلاقينا منه كل إكرام وحسن وفادة . وأخذ يسعى في نيل مطلوبنا ، يُركبنا العربات ، ويقضي وقته معنا في المقابلات ، والمساعدات . نركب من نظارة الى نظارة ، ومن إدارة الي ادارة ، وهو معنا . ولكن للأسف لم نفلح بما أردنا .

والسبب في ذلك أنّ

(انتهى ما وجد بخط المؤلف من مذكراته)

الفهارس

فهرس الموضوعات

أصل عائلة جرجي زيدان : ٣ ، ٧
ولادته سنة ١٨٦١ : ٥ ، ٧
أبناء الطائفة الأرثوذكسية في بيروت : ٩
وصف بيوت بيروت وفرشها : ٩ ، ١٠
وصف شغل والد جرجي زيدان : ١١
وصف والدة جرجي زيدان : ١١
والدته تشتغل بالخبز والتطريز : ١٢
وصف والده : ١٣
جرجي زيدان يبدأ بالتعلم
في الخامسة من عمره : ١٣
وصف طريقة التعليم : ١٣ ، ١٤
انتقاله في السابعة الى مدرسة الشوام : ١٥
اغلاق المدرسة الشوام سنة ١٨٧٠ : ١٦
خروجه من المدرسة ، وانتقاله
الى مدرسة الأقمار الثلاثة : ١٦
قضاؤه فيها سنتين ، حتى الحادية
عشرة من عمره : ١٦
انتقاله لمساعدة والده في محله على البرج
في التقييد والطبيخ : ١٧
ساحة البرج في بيروت ملتقى الزعران : ١٧
تعلمه صناعة الأحذية في الثانية عشرة
عند الأخوين شويري : ١٩
انتقاله الى محل الضحيك بسوق بيهم
في الثالثة عشرة : ١٩
كان معاشه نصف فرنك . قضاؤه
سنتين في صناعة الأحذية : ١٩
عودته الى لوكندة أبيه : ١٩
اصابته بالعادة السرية وتركه لها : ١٩ ، ٢٠
وصف القهوات البيروتية : ٢٠
وصف الحكواتية ، ولعب الحكم ،
وخيال الظل : ٢١ ، ٢٢
وصف زعران عصور : ٢١
عشراء جرجي زيدان في المطعم : ٢٤
أهل البطالة يستهوونه : ٢٥
مجالس اللهو والشراب في بيروت : ٢٥ ، ٢٦
الطبقات البيروتية : ٢٧

لبس الزي الافرنجي : ٢٧
جرجي زيدان لا يستطيع مجاراة أهل
الفتوة في الشراب ، والضرب : ٢٨
ابتداؤه بمطالعة الشعر بتأثير خليل شاول: ٣٠
تعلمه الانكليزية عند المعلم سعود الطويل : ٣١
جرجي زيدان يطبخ في المطعم
ويتعلم الانكليزية : ٣٤
يحاول تأليف قاموس انكليزي عربي
في السادسة عشرة : ٣٤
يطالع كتب الأشعار وهو يطبخ : ٣٤
يقرأ مجمع البحرين : ٣٤ ، ٣٥
قراءته العروس البديعة : ٣٦ ، ٣٧
يطلع على المقتطف : ٣٦
جرجي زيدان يتعلم الدوبيا : ٣٩
تعرفه على ابراهيم اليازجي ،
وعبد الله البستاني : ٤١
يرسل أول مقال كتبه الى المقتطف : ٤٢
التحاقه بجمعية شمس البر : ٤٤
عزمه على تعلم الطب : ٤٥ ، ٤٧
استعداده لامتحان الطب عند
اسكندر بارودي : ٥٠ ، ٥٢
قبوله في مدرسة الطب سنة ١٨٨١ : ٥٣ ، ٥٤
وصف أساتذته ، ورفقائه : ٥٤ ، ٥٥
الدروس التي قرأها : ٥٦ ، ٥٩
محاولته سرقة الجثث للتشريح : ٥٧
نجاحه في الامتحانات آخر السنة : ٦٢ — ٦٤
حوادث المدرسة الكلية : ٦٥ ، ٩٥
خروجه من المدرسة : ٩٥
نواله شهادة الصيدلة : ٩٧
عزمه على السفر الى مصر لمتابعة
دراسة الطب : ٩٨
وصوله الى الاسكندرية ثم القاهرة ٩٩ ، ١٠٠

فهرس الأعلام

آل طراد الأرثوذكس : ١٠
آل فياض « : ١٠
آل مطر الحصبانية : ٨
ابراهيم باشا : ٣
الأبرص ، اسكندر : ٢٥
ابن الفارض : ٢٩
أبو طاجي (الدكتور) : ٩٦
ادي (الدكتور) : ٨١
ارسلان ، مصطفى : ٣
اغابيوس ، بطريرك الاسكندرية : ٩٨
البرت (البرنس) ٦
انس : ٨١
اياس ، عبده : ٥٤

ب

البارودي (المعلم اسكندر) : ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٧
البارودي ، مراد : ٥١
باولي ، قسطا : ٢٥
باولي ، نخله : ٢٥
باز ، جرجي (الدكتور) : ٧٠ ، ٩٧
برباري ، خليل : ٥٥ ، ٩٣
برد : ٨١
بركستك (الدكتور) : ٦٦ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٩٦
البستاني (المعلم بطرس) : ٨٢
البستاني (المعلم عبد الله) : ٤١ ، ٤٢
بليس (المستر) : ٦٦ ، ٧٧
بورتر : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٦
بوسط (الدكتور) : ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٤

ث

ثابت ، ابراهيم : ٥٥ ، ٩٧
ثابت ، يعقوب : ١٣
جاويش ، قيصر : ٤٦
جريديني ، سليم : ٩٧
جسب : ٨١
جمعية اتحاد الشبان المسيحيين : ٤٤
جمعية شمس البر : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧
الجمال ، اسطفان : ٣٠

ح

حبوس (الست) : ٣ ، ٧
حداد ، انطون : ٥٥
حداد ، جبرائيل ، جبر : ٥٥ ، ٦٨ ، ٦٩
حكيم ، باخوس : ٥٥ ، ٩٧

خ

الخش ، أسعد : ٩٩
الخديوي : ٩٨
الخوري ، الياس : ١٦
الخوري ، سمعان : ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٥٥
الخوري ، موسى : ٦ ، ١٣
خير الله ، خليل : ٤٤ ، ٥٥
خير الله ، (المعلم ظاهر) : ١٥ ، ١٦

د

داروين : ٦٦
دايل : ٨٠
دباك ، اسكندر : ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣
دكسن : ٨١
دوغان ، قدور : ٢٢ ، ٢٣

ر

راشد ، أسعد : ٥٥
رحال ، أسعد : ٥٥
رستم باشا : ٤٢ ، ٨٢ ، ٩٨
زحلوط ، يوسف : ٩٧
زعني (الدكتور) : ٩٦
زهار ، الياس : ٧٣
زيدان ، أم جرجي : ٥
زيدان ، جرجي : ٩٩
زيدان ، سليم : ٥٥
زيدان ، ميخائيل : ٥
زيدان ، يوسف : ٧
الزيلع ، حنا : ٤٦

س

سابا ، الياس : ٥٥ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٨٩
السردوك (أولاد) : ٢٥
سعاده ، خليل : ٦٩ ، ٧٣ ، ٨٦
سعد ، (المعلم حبيب) : ٣٩

ش

شاهين ، اسكندر : ٥٥
شاول ، خليل : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٤
شبـــلي ، نسيب : ٩٧
شحاذه ، سليم :
شقير ، نعوم : ٥٥ ، ٦٨
شكور ، ملحم : ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠
شهاب ، سليم : ٥٥
شهاب ، فايز : ٧٠
الشهابي ، (الأمير بشير) : ٣
الشويري ، جرجس : ١٩
الشويري ، نخله : ١٩
صروف ، (المعلم يعقوب) : ٥١ ، ٦٧ ، ٨٢
صعب ، يوسف : ٢٣
صفير ، درويش : ٣٢
صليبي ، ابراهيم : ٥٥ ، ٧٠

صلبي ، صالح : ٩٥
صيقلي ، اثناسيوس : ٥٥ ، ٨٩ ، ٩٧
الطويل ، (المعلم سعود) : ٣١ ، ٣٢
عرب حوران المسيحيون : ٨
عرمان ، يوسف : ٨٢
عيسى بك : ٩٨
غرزوزي (الخواجة) : ٣٩
الغزاوي (أولاد) : ٢٥
الغساسنة : ٨
فارس (الحاج) : ٢٤
فانديك (الدكتور) : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٨ .
قليحان ، أمين : ٥٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨
فياض ، أمين : ٣٥
كحيل ، حبيب : ٨٩ ، ٩٧
كروفورد : ٨٠
الكفروني ، ابراهيم : ٤٢
كلارجي ، جرجي : ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٣
كوك : ٣٣
لويس (الدكتور) : ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٦ .

م

مارش : ٨٠
المتنبي : ٢٩
متواوس ، البطريرك الانطاكي : ٩٨
المحمصاني ، عمر : ٤٦
المحمصاني ، مصباح : ٩٨
مراد بك طبيب العسكر : ٩٦
مطر ، ابراهيم : ٥٥ ، ٩٧
مطر ، زيدان (جد جرجي زيدان) : ٣ ، ٤ ، ٧
معلوف ، فيليب : ٦٩
مكاريوس ، شاهين : ٤٢
مور : ٨٠
موط : ٨٢
ميلان ، انطون : ٧٠ ، ٨٩ ، ٩٣

ن

نصار ، حسن : ٥٥ ، ٩٧
نكسن : ٨٧
نلسن : ٨١
نمر (المعلم فارس) : ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٩٧
نمر ، نقولا : ٥٥
نوفل ، انطون : ٥٥ ، ٨٩ ، ٩٧
ورتبات (الدكتور) : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٦
وليم (الدكتور) : ٦٤
اليازجي (المعلم ابراهيم) : ٤١
اليسوعيون : ٣٤

فهرس الأماكن

الآستانة : ٣٦ ، ٣٧ ، ٧١ ، ٧٩
اسكندرية : ٩٩
الاشرفية (حي في بيروت) : ٥٠ ، ٥٨
أميركا : ٦٧ ، ٩٧
اهدن : ٧
البحر الأبيض : ٣١
البرج الكشاف (بيروت) : ٥
بناية يعقوب ثابت « ١٣
بيروت : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٥ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٦ ، ٩٧.
البيوت التي سكن فيها جرجي زيدان في بيروت : ٩
جبل لبنان : ٣ ، ٥ ، ٨٠
حاصبيا : ٧
حوران : ٧
دكان أبي جرجي زيدان بالبرج : ٥
دمشق : ١٥
دير القمر : ٢٩ ، ٤٢ ، ٩٧
رأس بيروت : ٥٠ ، ٥٧
زحلة : ٨٠
ساحة البرج ببيروت : ١٧
السلط : ٩٧
سورية : ٣
سوق بيهم في بيروت : ١٩
سوق الطويلة في بيروت : ٢٩ . ٣٩
الشام : ٥ . ٨٠
الشوف : ٧
شير مطر بالشوف : ٨
الشياح بجوار بيروت : ٣١
طرابلس : ٧
ضهور الاشرفية : ٢٩
عبيــة : ٨١
عــكا : ٣
عين زحلتا : ٩٦
عين عنوب : ٣ . ٧ . ٨
الفجالة (بالقاهرة) : ١٠٠
القاهرة : ٩٦ . ١٠٠
القدس : ٨٠
الكرنتينا (في بيروت) : ٢٩
الكورة : ٣٦
اللاذقية : ٨٠
المتن : ٧

مدرسة الأقمار الثلاثة في بيروت : ١٦
المدرسة الانكليزية » ٢٨
مدرسة سعود الطويل » ٣١
مدرسة الشوام »
مدرسة القصر العيني بالقاهرة ٩٥ . ٩٦ . ٩٨
المدرسة الكلية في بيروت ٣٠ . ٦٥
المدرسة الليلية السورية في بيروت : ٢٨
مدرسة مسز سوط » : ٢٨
مدارس الآباء اليسوعيين » : ٩، ١٣، ٢٨
مدارس الارساليات الأميركان
والانكليز والالمان في بيروت : ٢٧
مدارس الارساليات اللاتين في بيروت : ٤
المدارس البطريركية في بيروت : ٢٨
مدفن مار متري في بيروت : ٥٨
المستشفى البروسياني في بيروت : ٦٩
مصر : ٦ ، ٣٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩
المكتب الطبي الشاهاني بالآستانة : ٣٦ ، ٧١
ميناء بيروت : ٣٢

استدراك

الرجاء تصحيح ما يلي :

ص	س	الخطأ	الصواب
٣٠	٣٠	خفيفة	خفية
٤١	٥	يتألق	يتأنق

انتهى طبع هذا الكتاب
في مطابع معتوق اخوان – بيروت
في الخامس عشر من شهر مايس
سنة ١٩٦٨